منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

دار الأمان
الرباط

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

غازي حسين العلي

ليلة الإمبراطور

رواية



ليلة الإمبراطور

غازي حسين العلي

ليلة الإمبراطور

رواية

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef



منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-01-1072-1

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com
هاتف الرياض 0096650933772
هاتف بيروت 009613223227

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 676179 21 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com



4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
الهاتف: 537.72.32.76 (212) - الفاكس: 537.20.00.55 (212)
البريد الالكتروني: darelamane@menara.ma

المحتويات

”لا يستطيع أحدٌ امتطاء ظهرك
إلا إذا وجده منحنياً“

مارتن لوثر كينغ

خطفَ سعاد بطيارة

وراح يدور بها من قارّة إلى قارّة

رأيت فيما يرى النائم، أنني أجلس القرفصاء على سجادة حمراء داخل قفص خشبي مزخرف. كان وجهي مصبوغاً بالأخضر والأحمر، وجسدي يضج بقرقعة الحليّ، وثوبي بالكاد يستر بعضاً من وركي وصدري، ويتحلق حولي رجال كثر، بشواربهم الكثة المعقوفة وذقونهم النابتة، وهم يرمقونني في شغف من قدمي حتى رأسي.. وكان أحدهم لا يتوقف عن مغازلتي ورمي الكلمات النابية في وجهي، وهو يحرّك بين الفينة والأخرى، وبطريقة استعراضية وقحة، موضع نظرات عينيه المنغرزتين في لحمي. وحينما كنت أرشقه بنظرة حادة من طرف عيني وهو يفعل ذلك، تداخلني الرغبة في البصق عليه، لكن القواد الذي كان يقف إلى جواري ويساومهم على استئجاري، لم يكن يدخر جهداً في مراقبة نأماتي وحركاتي وهو يدعوني، قبل فوات الأوان، إلى مزيد من التغنج والدلال، وإلا دفعت ثمن بلادتي وسوء فهمي وتصرفي. وفيما كانت تتناوشني نظرات العابرين ولمسات بعض العسس المندسين، كان القوّاد يدور حول القفص، يستدرج العابرين بصوتٍ ناعم سلس: اسمها سعاد.. هيفاء

ميساء، وجهها أبيض مدوّر مثل البدر،وشعرها أسود مثل الحبر.. صدرها مكتنز يملأ كفين، ووركها فخيم لحيم يملأ حوضين.. خصرها ناعم مستدقّ، وبطنها بطن فرس حر غير مسترق ....

اقترب منه أحدهم وسأله: وبكم معاشرتها يا أخا العرب؟

فقال له القواد: بعشرة دراهم.

وحين وجد الرجل يعقد حاجبيه ويزمّ شفتيه مستغرباً، أردف يقول مستنكراً وهو يتملاني من فوق إلى تحت: إنه مبلغ ظالم على هذا الخصر الضامر والورك العامر.

واقترب منه آخر وسأله: يا أخا العرب، إن لي فيها رغبة والله، ولكني أخشى أن تكون مصابة بداء فتعديني، فهل عرضتها على طبيب قبل أن تحضرها إلى هنا.. فتنجيني؟

فأجابه القواد:بالطبع يا سيدي، فقد عدت بها للتو من مركز الأمراض السارية في حي الزبلطاني، وهي والحمد لله خالية من كل داء، وخاصة من هذا البلاء الأعظم الذي يسمونه الإيدز.

ويقترب منه ثالث ويسأله في ضعف وتذلل: ألا تكفيك خمسة دراهم يا أخا العرب، فنحن في سنة محل كما تعلم، وليس في الجيب ما يكفي لسد حاجة الباه. فيرد عليه القواد: اعذرني، فأنا لست ممن يلعبون بالأسعار مثل بعض التجار، وتسعيرتي هذه من وزارة التموين.

فوجدتني وأنا على هذا الحال، أشعر بالملل يحوطني، وبالتعب ينخر عظمي ويرخي مفاصلي، فاستلقيت على أرضية القفص.. وغفوت.

وإذ أصحو من النوم مذعوراً، أجدني أتحسس نفسي، فلا أجد حليّاً تخشخش على جسدي، ولا نهدين مكتنزين يتربعان على صدري، ولا وركاً لحيماً يتوسط وسطي.. فأعرف حينئذ أن كابوساً ركبني، وأنني رجلٌ ككل الرجال، فلا قفصاً يحوطني، ولا قوّاداً يقودني.. فنهضت لتوي من على السرير، رغم أن الوقت كان لا يزال مبكراً على الالتحاق بوظيفتي، فتعوذت بالله من الشيطان الرجيم، ثم سألت نفسي سؤال الحائر المستفسر: ما دخل سعاد الحلم التي كنتها بسعاد حبيبتي؟! فتذكرت في الحال أنني مساء أمس، وقبل أن أخلد إلى النوم، قرأت مئات السطور من كتاب "البغاء عبر العصور" الذي استعرته من أحد أصدقاء الدراسة. وكان ذلك الكتاب الفريد قد فتح أمام عيني باباً جديداً لم أكن أعرف عنه شيئاً من قبل، أما أحداثه وشخوصه وأمكنته فقد استحوذت على تفكيري، ما جعلني في ذلك الصباح الباكر، أعتقد بما لا يقبل الشك، أن ما جرى لي في ليل أمسي البهيم ذاك، ليس سوى أضغاث أحلام، وبقايا من كلماته وصوره، فقررت في الحال نسيانه، وعدم الغرق في تفاصيله وأوراقه.

وعلى غير عادتي في مثل هذا الوقت المبكر من النهار، فقد وجدتني أجلس إلى طاولتي لأكتب رسالتي رقم ستة وثلاثين إلى حبيبتي سعاد، التي لم أرها منذ يوم خطبتي لها، أشرح فيها ما يعتمل في قلبي، وأُعيد لها سرد قصة حبي وودي... فكتبت أقول:

((حبيبتي الغالية سعاد...

أبثك أشواقي ولوعة أشجاني...أما بعد:

فإليك حبيبتي أهتف من أعماقي، وفي أجوائك أنفث أناشيد غرامـي. أنـا لا أزال كمـا كنت، أطـوي ضلوعي على آمال أودعتها فـي طيـات فـؤادي وتلافيف دماغي، وحبك لا يزال في قلبي، كما عهدتـه، يـدب فـي ربيـع حديقتـك، وإني يا حبيبتي شـديد الإيمان بهـواكِ، ولـم أسـتطع رغـم مـرور كل هـذه الأيام، تفسـير صمتك المميت الذي يدميني! وإن عدم اكتراثك لرسـائلي عرّضني لجرح مؤلم أججته عواطف ثائرة في حنايا ضلوعي..

لـمَ صمتـك؟ ولمـاذا لا تردّيـن علـى رسـائلي؟ أجيبيني بالله عليـك، ولا تدعينـي أتخبـط فـي بحور الحيرة والقلـق، فقد كفاني انتظاراً وعذاباً واضطراباً.... حبيبك المعذب سعيد))

قرأت الرسالة مرة ومرتين وثلاث، ثم طويتها على مهل، وأنا أتخيلها تركن بحنو بين يدي سعاد، بعد أن وضعتها داخل مظروف أبيض دسسته في جيب سترتي، مستحضراً كعادتي ما قاله لي ذات يوم جد المحبين المدعو ابن حزم الأندلسي، بأن ما حدث لي ما هو إلا هجر أوجبه العتاب لذنب وقعت فيه، وأن فرحتي بالرجوع إلى حبيبتي سـعاد سـيكون فيه سـرور الرضى عما مضى، ذلك أن رضى المحبوبة بعد سخطها، سيكون لذة في القلب ما بعدها لذة، وموقعاً في الروح لا يفوقه شيء من أسباب الدنيا.

تعرّفت إلى سـعاد يوم كنت في أمانة المحافظة،أراجع رئيس دائرة مكافحة الكلاب الشاردة، في مظلمة وقعت عليّ من رئيس البلدية الذي لم يدفع لي مكافأتي الشـهرية، بعد قتلي ثلاثة كلاب

جعارية. وبينما كنت أنتظره حتى يفرغ من أشغاله، دخلت عليه سعاد تستوضحه في أمر، فعرفت أنها تعمل في نفس الدائرة، وأنها واحدة من معاونيه.. واستغربت لحظتئذ، سرّ دخولها عقلي واستيطانها قلبي.

في البيت عرفت السر...

فسعاد أمانة المحافظة، تشبه المرحومة سعاد حسني، التي طالما استحضرتها إلى فراشي ليلاً. كنت أقول لها: أنا مغرم بك يا سعاد، ولم يفتني فيلم لك إلا وحضرته عشرات المرات. وكانت تضع عينيها في عيني، تضحك وتضحك حتى تغرق في الضحك، ثم تقول لي في غنج وهي ترمي نفسها في حضني: "وأنا كمان يا حبيبي.. بس وريني دلوقت حتعمل أيه؟" فأجدني أُقبّل شفتيها وأجوس الأرض من تحت قدميها.

لقد بان السر إذن، سعاد هي سعاد.. في حركاتها وسكناتها، في دلالها وغنجها، في تسريحة شعرها، في تطابق فمها وأنفها، وحتى في قوامها ومشيتها.

صباح اليوم التالي كنت أقف أمام مكتبها، ترددت قبل أن أدخل.. ترددت كثيراً، وقلت لنفسي غير مرة وقد اصفرّ وجهي واحمرّ: أدخل يا سعيد. ثم أعقبت: لا تدخل يا سعيد. وحين صحت في داخلي: (يا الله) وجدتني، هكذا، أقف قبالتها وجهاً لوجه..

قلت لها: صباح الخير آنسة.

قالت لي: أهلاً..

قلت لها: أنا سعيد، زميلك في أمانة المحافظة، وأعمل حالياً في بلدية عيشة.

ثم أردفتُ بعد لحظة صمت: يوم أمس، حين كنت عند الأستاذ رئيس الدائرة، شاهدتك تدخلين إليه وتسألينه عن أمر.. كنت أنا عنده... ألم تتذكرينني؟

مطّت شفتيها إلى أمام، ثم قالت بعد أن نترت خصلة من غرّتها إلى الخلف: اعذرني، لا أذكر أني رأيتك من قبل، ومع ذلك أهلاً بك وبالأستاذ.. تفضل هل لك حاجة عندي؟

وما إن تفضلت، حتى شرعت أحكي لها عن زحمة الطرق وكثرة السيارات والشوارع الضيقة التي بالكاد تتسع المارة، وكانت هي ترمقني بنظرات متفحصة لا تعرف سبب هذا الحديث، فقاطعتني تقول: لم تقل لي بعد ماذا تريدني أن أخدمك؟

قلت: لي طلب خاص جداً، بعيد عن الشغل، وقد لا يناسب المكان للحديث فيه.

وشعرتُ في تلك اللحظة أنها فهمت قصدي ومرادي، وقبل أن تعلّق على كلامي، مددت يدي في جيبي وأخرجت منه قصاصة ورق كنت قد سجلت عليها رقم جوالي. ناولتها القصاصة وأنا أتمتم لها: هذا هو رقم جوالي.

ثم أعقبتُ ثانية وأنا في حال من الارتياب والتوجس: هل يمكنني أخذ رقم جوالك؟

تناولت القلم المركون قبالتها على الطاولة، ثم خطت لي رقم جوالها على ورقة وناولتني إياها وهي تقول: من حيث المبدأ لا

مانع لدي، ولكن اتركني أفكر بالأمر لبضعة أيام، وسنحكي بعدها.

هـززت رأسـي موافقـاً، بعد أن دلقتُ فـي جوفي ما تبقى من كأس المـاء التـي كانـت أمامي علـى الطربيزة، ثم غادرتها من دون أن ألتفت خلفي، وكان صوتها وهي تشـيعني قائلة (مع السـلامة) يدغـدغ أذنـي وأنـا لا أزال أمشـي في الممر الطويـل المفضي إلى بـاب المؤسسـة، ثـم وأنا أركب الحافلة نحـو بيتي، ثم وأنا أجلس فـي البيـت أتفرّج علـى التلفزيون.. وظل هكذا إلى أن خلدت إلى سريري ونمت.

ورأيت فيما رأيت،أن سعاد دخلت إلى بيتي وهي تلبس أبيض بأبيض، فبدت لي،في هيئتها تلك، مثل عروس في ليلة دخلتها...

قلت لها: لقد تأخرت.

قالت: إنها زحمة السـير يا حبيبي، فالسـيارات كثيرة، والطرق مزدحمة وضيقة.

قلت لها: وأنا أيضاً مزدحم النفس ومتضايق.

قالت: وماذا ستفعل؟

قلت: تعالي لنذهب في مشوار .

وخرجنـا مـن البيـت بعـد أن لففـت ذراعـي علـى ذراعهـا، ورحت وإياها نقفز من مكان إلى مكان.. فمن سـورية إلى الهند والباكستان ومنها إلى بلاد الطليان فالأمريكان،ثم بتنا ليلتنا الأولى في أصفهان على سـرير واحد محشـو بريش النعام... ثم جعلت سـعاد تحكي لي وهي تتوسـد يدي: بلغني يا حبيبي سـعيد، والله

أعلم، أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان شاب من أهل الشـام يدعى سـعيد، وكان سـعيد هذا فقير الحال لا يملك مـن أمـر الدنيـا إلا لقمـة يومه الحلال، ولكن قلبه يا سـبحان الله مثل ماء زلال.. وكان سعيد يحب بنتاً اسمها سعاد، وكانت سعاد هذه رشيقة القدّ، ذات حسن وجمال، وقدّ واعتدال، وجبين كغرّة الهلال، وخدود مثل شقائق النعمان، وفم كخاتم سليمان. وذات يوم من الأيام قال سعيد لنفسه: والله لأعملن عملاً ما سبقني إليه أحد. فخطف سعاد بطيارة وراح يدور بها من قارّة إلى قارّة، فإذا بهما يحطان في أصفهان، وينامان معاً على سـرير واحد محشـو بريش النعام ...

لـم أعد أتذكر كم من الزمن انتظرت جوابها، ساعة أم ساعتين، يوماً أم يومين، أسبوعاً أم أسبوعين، إلى أن وجدتني أدخل إليها.. ومـا إن وقعـت عيناهـا عليّ حتى نهضـت من خلف مكتبها مرحبة بي، وإذ استفسر منها عن سبب تجاهلها لي كل هذا الوقت، أجدها تحلـف لـي أغلـظ الأيمان أن رقـم جوالي ضاع منها. وحين رأتني أستكبر ذلك الإهمال، شرعت تحكي لي قصة اللص الذي خطف محفظتها من يدها وهي تتسوق، ثم كيف ولى هارباً بعيداً عنها... حينئذ فقط بردت ناري واستقرت نحوها مشاعري وأحوالي...

قلت لها: لقد كانت أيام قلق وجدب .. وأكثر ما خشيته أنكِ لم تفهمي القصد.

فأجابت: بلى فهمت.. وأنا موافقة على ما نويت.

قلت: ولكنك لم تسألني عن شغلي ولا حتى عن طبيعة عملي.

قالت: لا يهم.. فأنت زميلي وحبك لي يكفيني.

خرجت من عندها بعد أن عقدت العزم على زيارة أهلها، لأطلب يدها وأتزوجها على سنة الله ورسوله. وفي الموعد الموعود، سويت شعري بالسيشوار بعد أن غسلته بصابون الغار، ثم تعطرت وارتديت أجمل ما عندي من ثياب.. وعلى عكس ما كنت عليه في أيامي السالفة من المشي وركب السرافيس، فقد استأجرت تكسي أقلتني إلى قبالة دارهم، حتى أحافظ على هندامي أمامهم.

سألني والدها عن أهلي ولماذا جئت لوحدي، فقلت له إن أبي طلّق أمي بعد أن ضبطها مع جارنا أبو زهدي الذي تزوجته على سنة الله ورسوله وسافرت معه إلى السعودية للشغل والعمرة.. أما أبي فيقبع الآن في سجن عدرا بتهمة السرقة.

وسألتني أمها عن شغلي ودخلي، فقلت لها أعمل في البلدية صياداً للكلاب البرية وراتبي حوالي سبعة آلاف ليرة عدا المكافآت الشهرية.

وسألني أخوها عن دراستي وسنة تخرجي، فشرحت له سبب تركي للمدرسة وأنا في الصف السادس، وكيف ثقفت نفسي بالكتب التي أستعيرها من صديقي الوحيد منذ أيام المدرسة.

مرّت دقائق حسبتها دهراً بأكمله، كنت أتصفح خلالها وجوههم بعينيّ المضطربتين واحداً تلو الآخر، بينما كانت سعاد

تجلس قبالتي صامتة واجمة. تنحنح أبوها بعد حين ثم قال: اعذرني يا بني فليس لك عندنا نصيب.

وقالت أمها ساخرة وهي تغمز بطرف عينيها: الله يبارك لك بكلابك وبراتبك.

أما أخوها فقد نصحني بقراءة كتب لينين وكارل ماركس ودوستوفسكي وتولستوي.

وقبل أن أكمل فنجان قهوتي، أوصلني أبوها إلى باب البيت، بينما بقيت سعاد تقبع فوق مقعدها حزينة بائسة على فشلي وقلة حيلتي، أما أنا فقد كنت كومة من لحم تمشي على قدمين، وبدت لي نفسي وكأنها تعرّت من جسدي.

في اليوم التالي زرت سعاد في مكتبها وشكوت لها موقف أهلها، فقالت لي غاضبة: لقد أسأت التصرف أمام أهلي مساء البارحة، وما كان يجدر بك أن تقول ما قلت.

ثم رجتني أن أنساها وأن أجد ابنة حلال تناسبني سواها.

فصحت بها مجروحاً: إن حبك يا سعاد قد كبر في داخلي وإنني مستعد لإصلاح ما أفسدته البارحة.

فأشاحت بوجهها عني وتمتمت دون أن تنظر إلى وجهي: لقد انتهى كل ما بيننا، وأرجوك ألاّ تزورني ثانية في المكتب، لأنني نذرت نفسي للحلال، ولا أريد لأحد أن يلوكني بالسوء من قيل وقال.

فخرجت من مكتبها مكسور الخاطر، لأن قرارها هذا كان

قـراراً جائـراً وفاتـر، لكنـي عقدت العزم على أن أظل أحب سـعاد ما حييت، إلى أن يأذن الله لي بها، وقد دعوته سبحانه وتعالى أن يعصمني من حيرتي ولا يحمّلني ما لا طاقة لي بمخالفته، ويقيّض لي من جميل عونه دليلاً هادياً إلى طاعته، ويهبني حباً نقياً خالصاً لسعاد حبيبتي، حتى لا أقع، مثل ما وقع غيري، في سوء الاختيار وقلة التمييز وفساد الهوى.

استلمت البارودة والضروب
لزوم تنفيذ المطلوب

ورأيـت فيمـا يـرى النائم، أنني أقود سـيارتي في مكان ناءٍ في ساعة متأخرة من الليل (لم أملك سيارة في حياتي)، فشاهدت شبح امرأة تستنجد بي، وإذ أفرمل السيارة بمحاذاتها وأنزل إليها، أجدني أقف قبالة سعاد مذهولاً وسط الظلمة الحالكة، وهي ترتعش هلعاً وبرداً. خلعت عني سـترتي ورميتها على كتفيها، ثم أجلسـتها بحنو إلى جانبي في السيارة.

سـألتها: مـاذا تفعليـن فـي هـذا الوقـت المتأخر مـن الليل يا حبيبتي؟

لـم تسـتطع إجابتي، وكنت أسـمع تكتكة أسـنانها، بعد أن كان البرد قد أخذها أخذاً شديداً، فلزمت الصمت وأنا أهرول بسيارتي العتيقة مسرعاً ما استطعت إلى بيتها.

ورأيت فيما رأيت، أنني ذهبت صباح اليوم التالي إلى بيت أهلها لأطمئن على صحتها وأسترد سترتي منها. قرعت الباب، فأطلت أمها من خلفه، وسألتني من جزع وقد هالتها رؤيتي: ماذا تريد؟

فرحت أشرح لها ما حدث معي ليلة أمس، وأنني جئت الآن لأطمئن عليها وأسترد سترتي منها.. فإذا بها تصرخ بي متهمة إياي بالخبل والهبل، وتراكض الجيران نحونا يستفسرون ما الذي يحدث، بينما كانت أم سعاد تقول وهي تكاد تجهش بالبكاء: هذا المخبول يدعي أنه كان مع المرحومة سعاد ليلة أمس، وأنه أعارها سترته وجاء اليوم ليستردها!

اقترب مني رجل عجوز، وراح يربت على كتفي وهو يقول: اذهب يا بني.. كان الله في عونك.

ثم أعقب: المرحومة سعاد ابنة جيراننا ماتت منذ سنوات ولعلك تقصد غيرها.

وحين حاولت أن أشرح له أنني أعرفها وأنني أعيش قصة حب معها، قاطعتني سيدة بدينة كانت تقف إلى جواره: اذهب من هنا قبل أن نتصل بالشرطة.

بينما علّقت أخرى: ولماذا الشرطة يا أم علي؟ هذا مجنون ومن الأفضل أن نتصل بمستشفى الأمراض العقلية.

فوجدتني أصيح بصوت متحشرج مخنوق: سعاد لم تمت يا جماعة.. لقد رأيتها بأم عينيّ هاتين اللتين سيأكلهما الدود.

وقبل أن أغادرهم، حمدت الله الذي على منوال إرادته تُنسج مقاطع الأمور، ومن ينبوع قضائه إلى لجج قدره يجري تيار الإعصار والدهور.. وسألته سبحانه -إن ماتت فعلاً- أن يجمعني بها يوم الدين.

في الشارع، مرّ من أمام عينيّ شريط ذو صور مبهمة، حاولت

إزاحته لكن دون جدوى.. كان أشبه بمعمعة رهيبة علا فيها الصياح والنحيـب، أولاد ونسـاء وشـيوخ يتراكضـون نحوي من كل حدب وصوب، وسـعاد تقف قبالتي وقد رفعت ثوبها إلى وسـطها وهي تقـول: أنظـر مـاذا فعلـوا بـي يـا سـعيد؟ فراعني ذلك وأنـا أحدق فيـه.. كان هـراً أمـرد يسـبح في دمـه المتفجر تـواً، فوجدتني أقول لهـا بمـلء فمـي، وأنا أدس رأسـي بيـن هضبتي صدرهـا النافرين: الآن عرفـت لمـاذا قالـوا لـي إنك مت يا سـعاد. وبعد الرجفة التي التحفتنـي وبـددت حـال المفاجـأة عنـدي، كانت المعمعـة قد هدأ صخبها وخفت رائحتها، غير أن شكل صدر سعاد المنتفخ بنهديها المهولين، وهما في حالة من الانفراط تحت قميصها، ظلت صورته بين عينيّ لا تغيب.

صباحاً، وما إن استيقظت من النوم وأنا في كدر عظيم، حتى وجدتني ألعن الساعة التي قرأت فيها كتاب "الحياة ما بعد الموت" لمؤلفه ريمون موري، فلبست ثيابي وسوّيت شعري على عجل، ثم خرجت من البيت هائماً على وجهي لا أعرف إلى أين السبيل. لقد تمكن القلق والخوف مني على سـعاد، وانتابني شـعور أن مكروهاً أصابها. هل ماتت فعلاً أم أن ما رأيته كان مجرد كابوس سببه لي ذلـك الكتـاب اللعيـن!! لكن قلبي الطري، الذي يحب سـعاد ولم يستطع نسيانها رغم الجفاء والفراق، كان يحثني على البحث عنها والاطمئنان عليها، فذهبت في الحال إلى أمانة المحافظة، وتنحيت جانباً عند باب مبنى الأمانة أنتظر قدومها. كان الوقت لا يزال مبكراً

وثمة ساعة وأكثر على وقت دوامها، فسألت نفسي سؤال الحائر: لماذا لا أسأل البواب عنها فأريح قلبي وأستريح؟ وهكذا وجدتني أسأله عن حالها وأحوالها، فإذا به يقول لي، إنها انتقلت من أمانة المحافظة منذ أشهر ولا يعرف شيئاً من أمرها.

ورسائلي.. أين ذهبت رسائلي؟

كنت كل أسبوع، وأحياناً أقل من ذلك، أجيء إلى هذا المبنى الضخم الذي يسمى أمانة المحافظة،أضع رسالة لسعاد في صندوق البريد المعلق على الجدار قرب باب المبنى، ثم أقفل عائداً إلى عملي في البلدية، على أمل أن يحنّ قلبها عليّ وتتصل بي أو تخصني برسالة تريح قلبي.

تُرى أين أنت يا حبيبتي سعاد؟

مساءً، في البيت، شعرت بفرح عظيم وأنا أتصفح كتاب (تفسيرالأحلام الكبير) لابن سيرين، عند قوله إن الموت في الرؤيا ندامة من أمر عظيم، فمن مات ثم عاش فإنه يذنب ذنباً ثم يتوب.

وقلت في نفسي: هل ثمة ندامة أعظم من ندامة سعاد على جفائها وهجرها لي طوال هذه المدة ؟

ودخلني يقين، إن ما هي إلا بضعة أيام، حتى تأتيني سعاد نادمة معتذرة عما فعلته بي.. حينها سأضمها إلى صدري وأحنو عليها حنو العاشق للمعشوق دون عتاب أو جفاء، فتعود مياهنا إلى مجاري الأيام الخالية، يوم رأيتها عند رئيس الدائرة، ويوم زرتها في مكتبها، ويوم ذهبت لخطبتها.

قبـل أن أدخـل مبنـى البلدية، اسـتوقفني المراسـل عند الباب وأخبرنـي أن كتابـاً وصلهـم مـن أمانة المحافظـة بخصوص كلاب شـاردة، وأن المعلـم يريدنـي. صعدت الدرجـات القليلة الموصلة إلـى الطابـق الثانـي حيـث مكتب رئيـس البلدية، ثم عبـرت الممر الضيـق المفضـي إلى مكتبه. دخلت إليه، وما أن رآني حتى ناولني مهمتي وهو يقول: اسمع.. لقد جاءتنا هذه الشكوى.. العنوان هنا فـي المهمـة.. اذهـب اليوم وليكن الوقـت متأخراً.. أكمن لها جيداً وحـاذر أن تفلـت منـك، لأن أميـن المحافظـة بنفسـه مهتم بالأمر، ووصلنا هاتف توصية منه اليوم.. فهمت؟

نعم فهمت.

وخرجت من عنده إلى مسـتودع المهمات، لاسـتلام البارودة والضروب، لزوم تنفيذ المطلوب.

وعدها بسيارة
وأن يسجل باسمها عمارة

ورأيت فيما يرى النائم، أنه ما غربت شمس يوم الاثنين المصادف السابع من تشرين الثاني عام 1898 ميلادية عن دمشق، إلا وأنوار الطلعة الإمبراطورية قد حلّت محلها، فأُطلقت المدافع احتفاءً وتكريماً. وما إن خرج صاحبا الجلالة الإمبراطور الألماني ويلهلم غليوم وزوجته الإمبراطورة أوغستا فيكتوريا من مركبتهما في القطار حتى خفّ لاستقبالهما صاحبا الدولة العلية في جمهور غفير من الوزراء والأمراء والرؤساء الروحيين وتلامذة المدارس ومئات الألوف من خاصة الناس وعامتها.. فغصّت بهم الطرق والرحاب الفسيحة، وهم يرقبون قدوم الزائرين الكبيرين. امتطى صاحب الجلالة جواداً أشهب، وركبت صاحبة الجلالة مركبة بأربعة أفراس مترادفة، زوجين زوجين، بجِلالٍ ذات صفائح من ذهب خالص، وركبت إلى جانبها واحدة من نسوة الشرف، ما إن وقعت عيناي عليها من بعيد حتى هالني ما رأيت!! إنها سعاد بشحمها ولحمها، لكنها على غير هيئتها التي عرفت، وبدت لي وهي تجلس بمحاذاة الإمبراطورة، وكأنها أميرة من أميرات

ذلـك العصـر. تبـع المركبة وجواد جلالته مئات من المركبات تقل الحاشية ورؤوس القوم، فدخلا المدينة بين هتاف الداعين وأصوات الموسيقى الشاهانية الشجية، وكانت دمشق وهي على هذا الحال، تتلألأ بمصابيح وأنوار الزينة، فتجلّت للناظر وكأنها شعلة من نار. ولأننـي مـن العـوام وأرتـدي قنبازاً متسـخاً بالياً باهـت اللون، فقد كنت أمشي مع الماشين، وأركض مع الراكضين، للنظر إلى الطلعة الإمبراطورية البهية... غير أني لحظتئذ، لم أكن أحمل من هم هذا الأمـر شـيئاً، وكل مـا كنـت أتمناه وأريـده، أن أتأكد من أن الأميرة الجالسة إلى جانب الإمبراطورة هي نفسها حبيبتي سعاد، الموظفة في أمانة المحافظة. وفيما كنت أعدو على غير هدى، وقد أخذت مني الرعشة ثم الدهشة مأخذاً عظيماً، تعثرت بحجرٍ أسقطني أرضاً، وراحت الأرجل تدعسني دعساً، ولشدة الألم الذي ألمّ بي، نهضت من تويّ مذعوراً أنظر حولي وأتلمس جسدي، فإذا بي أجد نفسي مسـتلقياً على سـريري في غرفتي، وأن ما كان لي مع ذلك الزمان الذي مرّ عليه نحو مئة عام، مجرد أضغاث أحلام أوجبتها قراءتي عن الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية، فتعوذت من شرور حكايات الكتب والكاتبين، ثم عقبتها بتلاوة سورة الفلق.. ونمت.

صباحـاً، عنـد الثامنة تماماً، دخلت إلى رئيس البلدية وأخبرته بتنفيـذ مهمتـي، وأعلمتـه أن الـكلاب التي نفقت علـى يدي بلغت سـبعة جعاريـات... فأثنـى عليّ ووعدني خيـراً بمكافأةٍ مجزية آخر الشهر.

فقلت له بعد أن شكرته: يا أستاذ.. بعض الناس يتكلمون علينا ويقولون إن قتل الكلاب حرام وإنه عمل غير إنساني.

قال: ومن هم هؤلاء الناس الذين يدوسون على طرفنا ويريدون أن يعلموننا الحلال والحرام؟

قلت: أنصار جمعيات الرفق بالحيوان.

قال: هؤلاء جماعة كلام بكلام.. لا تلتفت إليهم وانتبه إلى شغلك.

قلت:حاضر يا أستاذ.

ثم خرجت...

وددت، قبل أن أخرج من عنده، أن أقول له إن هنالك طرقاً أخرى نتخلص فيها من الكلاب الشاردة من دون بواريد وضروب ومشاكل مع الحلال والحرام وجمعيات الرفق بالحيوان. وكان سيقول لي: وما هي هذه الطرق يا فهمان يا مثقف؟ وكنت سأجيبه: هذه بسيطة يا أستاذ.. لقد قرأت منذ أيام مقالاً في الجريدة ينصح باستخدام الطعوم السامة المحشوة في رقاب ورؤوس الدجاج. وكان سيقول لي: وكيف سنعرف أنها ماتت يا فهمان؟ وكنت سأرد عليه: وهذه أيضاً بسيطة يا أستاذ.. نقوم بجولة صباحية ونلمّ ما نفق منها.. ثمّ كالعادة نحرقها ونطمرها. وكان سيقول لي ساخراً: هذه كلاب متوحشة يا حبيبي ولا تفهم إلا لغة البارود.

عند الثانية عشرة ظهراً، كنت أحوص في مبنى أمانة المحافظة أتقصى أخبار سعاد علّني أعرف مكان عملها الجديد.. غير أن

أحداً من زملائها في العمل لم يستطع إفادتي ولو بمعلومة صغيرة تقودنـي إليهـا، فوجدتني أقفل عائداً إلى بيتي والهم يزلزل نفسـي، ذلك أن ما حلمت به يوم أمس ليس له تفسير سوى ما ذكرته لي سعاد عند زيارتي الثانية لها في مكتبها، بأن ابن عمها الضابط في الجيش سعى غير مرة ليتزوجها، وأنه وعدها -إن هي وافقت- أن يشتري لها سيارة ويكتب باسمها عمارة، وكانت هي ترفضه بشدة رغم إلحاح أمها وأبيها على الزواج منه. أما شقيقها التقدمي، الذي نصحني بقراءة لينين وماركس ودوستوفسكي وتولستوي، فكان من أشد المعارضين لهذا الزواج، وكان يقول إن ابن عمه الضابط جبان وحرامي، ولا يليق بأخته أن تكون زوجته.

في البيت جلست أتفكر بأمري، علني أجد حلاً قبل أن أفقد صبـري. وفيمـا كنـت على هذا الحال، أعلنت مذيعة التلفزيون عن بدء عرض فيلم السهرة وكان اسمه (عنترة فارس الصحراء) ولأنني ممن قرأ سيرة عنترة من الجلدة إلى الجلدة، فقد استحوذت عليَّ رغبـة مشـاهدته، وخاصـة أنـي لم أشـاهد من قبل فيلمـاً عن عنترة بن شـداد وحكايته مع ابنة عمه الآنسـة عبلة، فأسـرعت من توي إلـى المطبـخ وحضّرت لنفسـي فنجان قهوة، ثـم عدت إلى الغرفة مسـرعاً، وجلسـت على الصوفا قبالة التلفزيون، أنتظر الفيلم الذي كان ما يزال في سيرته الأولى، من عرض أسماء الكاتب والمخرج والممثلين ومهندسي الإضاءة وخبراء الفروسية والمصممين...

بدأ الفيلم بمشهد لعنترة يجلس إلى جانب فرسه في الصحراء. ومع بدء الموسيقى التصويرية الحزينة المرافقة للمشهد، طفق عنترة

ينشد قائلاً وعيناه تسرحان في البعيد حيث مضارب بني عبس:

ومن دار عبلة نار بدتْ   أم البرق سلّ من الغيم عضبهْ
أعبلةُ قد زاد شوقي وما   أرى الدهر يدني إلى الأحبهْ
وكم جَهْدِ نائبة قد لقيتُ   لأجلك يا بنت عمي ونكبهْ
فلو أن عينيك يوم اللقاء   ترى موقفي زدتِ لي في المحبّه

ولم يكد ينتهي من إنشاده، حتى أقبل إليه أخوه شيبوب على بغل يرجوه إنقاذ عبلة ونساء عبس من الأسر، ثم يروي له وهو يلهث، إن قبيلة معادية غزت مضاربهم وعملت فيها قتلاً ونهباً لنسائها ومواشيها. وما إن سمع عنترة الهمام هذا الكلام، حتى نهض من مكانه ممتطياً فرسه وهو يصيح صيحته المشهورة التي رددت صداها الآفاق.

المشهد الثاني يرصد من بعيد مضارب عبس وهي في حال يرثى لها من القتل والسلب والنهب، وكان فرسان القبيلة الغازية يدفعون قدّامهم المواشي والجمال والنساء، بينما كانت عبلة، حبيبة عنترة وحسناء بني عبس، تصيح وتستغيث: واعنتراه.. واعنتراه...

فإذا بعنترة يظهر على فرسه كالشهاب من بعيد، وهو لا يزال يصيح صيحته المشهورة، فيدب الرعب في قلوب الغزاة، ويتركون ما بين أيديهم من غنائم، ويهربون بروحهم مولين الأدبار.

وإذ يدخلني الحماس مما أرى، يحمرّ وجهي ويصفّر، وأسأل نفسي سؤال الغاضب الحانق: لماذا لا أكون عنترة هذا الزمان، فأحمل بارودتي وضروبي، وأُردي على الأرض هذا الضابط

الحرامي الذي لا تطيقه سعاد، فأريحها وأستريح، وقد يقول لي شقيقها التقدمي، وهو يشد على يدي: أنت شجاع وثوري ويشرفني أن تكون زوجاً لأختي.

وسألت نفسي أيضاً: ولماذا لا أكمل المهمة، فأردي على الأرض رئيس البلدية المستبد الذي يسخر مني، ويتمادى في احتقاري وعدم الأخذ بآرائي؟

هذا الكلام يقال همساً في المكاتب
وليس عند أهل الشأن والمناصب

ورأيت فيما يرى النائم، أنني وسعاد عاريان نتضاجع وسط حشد من الجمهور، وأن ابن عمها الضابط كان يؤلبهم علينا ويحثّ بعض الزعران على قتلنا. كان الجمهور غارقاً في حمى الغناء والرقص والسخرية، وكنت وسعاد نتلوى تحت وطأة آلام النشوة الجنسية. أشار ابن عمها الضابط إلى اثنين كانا يحملان مطرقة وعصاً خشبية مدببة، فشرعا يدقان العصا دقاً في جسدينا المرتجفين، على إيقاع صخب المغنين والراقصين وتعليقات الساخرين، حتى اخترقتنا اختراقاً كاملاً، ثم أخذا يشرعاننا في الهواء، ويتوجهان بنا إلى بركة ماء عكرة تتوسط ساحة فسيحة مشجرة. كنا لا نزال على قيد الحياة نتلوى من الألم، ونتعرض لهزء وإهانات الجمهور الذي كان يتبعنا، حتى أن بعضهم اقترب منا وراح يدوّر جسدينا حول العصا مثل مروحة معلقة على سقف، وهم غارقون في ضحك هستيري مجنون.

قلت لسعاد التي كانت تتمروح إلى جانبي والدم ينزف منها: ابن عمك هذا ليس لصاً فحسب وإنما دكتاتور وآكل للحوم البشر.

غيـر أن فمهـا الممتلـئ بالـدم، لـم يكن ليسـاعدها للرد على كلامـي، وبـدت لـي في دورانها ذاك، وكأنها كتلة من لحم لا حياة فيه.

عند وصولنا البركة، ونحن مخوزقان من وسطنا على العصا، صعقني ما رأيته من تماسيح عملاقة كانت تسبح في الماء العكر. ولم نكد نصبح لقمة سائغة في فكوكها القوية المسننة حتى بدأت الفقاعات بالظهور على السطح، تلتها غيمة حمراء قانية، ثم صمت مطبق... وعوم في فراغ أسود.

مرة أخرى، وقعت ضحية شرور الكتب والكاتبين، بعد قراءتي كتاب "التعذيب عبر العصور" لمؤلفة المدعو بيرنهارت ج.هرودد، الألمانـي الأصـل، وأحد رعايا الإمبراطـور غليوم، صاحب الطلعة البهيـة، الـذي زار دمشـق يـوم الاثنيـن من شـهر رجب عـام 1316 هجرية.

اليوم عرفت، وبما لا يقبل الشـك، أن وراء جفاء سـعاد لي، هـو ابـن عمهـا الضابـط الذي وعدها بسـيارة وأن يسـجل باسـمها عمـارة، وأن أمـراً جلـلاً قـد حدث مـن وراء ظهـري جعلها تُغرق فـي هجـري، ولعلـه هددهـا بالويـل والثبور وعاقبـة الأمور إن هي تزوجتني، فأذعنت المسكينة له، ليس خوفاً على روحها أن تُزهق، وإنما خشية عليّ من شروره ومكائده...

فقررت من توّي أن أخطّ لها رسـالة، أشـرح فيها موقفي مما يكون قد حصل لها، وأنني العبد لله، لا أخاف ابن عمها الضابط، مهمـا كانـت عـدد نجومـه ونسـوره ومواقعـه، وأنني سـأعتبره كلباً

جعارياً، ولـن يكلفني حينها سـوى ضرب واحـد من بارودتي بين عينيه حتى ينفق بين يديّ. وسأشـرح لها فيما سأشـرح، أنني أحبها حبـاً جمـاً، وأن طيفهـا الحبيب يلاحقنـي أينما كنت وذهبت، وأنها الملاك بلباس أبيض ناصع، والطير الذي كان ولـم يزل ينشد الحب على أغصان قلبي، وأنني أنتظر اليوم الذي تكون فيه بين أحضاني، لأبثها لواعجي وأشجاني. ثم أناجيها قائلاً: أناشدك الله أن تترحمي علـى قلبـي الذي لا يسـتحق كل هذا الجفـاء.. فترفقي بمن أحبك وحنّ إلى لقائك.. وهاأنذا أبوح لك يا سـعاد بحب قلبي الطاهر، فهل تستجيبين لندائه؟

قطع حبل تفكيري بسعاد رنين هاتفي الجوال...

- آلو..

فجاءني من الطرف الآخر صوت عبد الغفور مراسـل البلدية يقول: مرحبا سعيد.

- أهلاً.

- تعال إلى البلدية حالاً .. رئيس المكتب الفني يريدك؟

- ربع ساعة وأكون عنده.. مع السلامة.

حينما دخلت إلى رئيس المكتب الفني، وجدت عنده حشـداً غفيـراً مـن المراجعين، وما أن سـقطت عينـاه عليّ حتى انتحى بي جانباً وقال لي: منذ سـاعة اتصلوا بي من بلدية شـبعا ويريدون منا خدمة بسيطة.

وتابع يقول: يشتكي الأهالي هناك من وجود جعاري مكلوب

على أطراف البلدة، وبما أنه ليس في بلديتهم اختصاصي بمكافحته، فقد طلبوا أن نخلصهم منه، وسيدفعون لك مكافأة مجزية، ويمكنك اعتبار هذه المهمة خاصة بك ولا دخل لبلديتنا بها.

- والبارودة والضروب؟

- يمكنك استعارة البارودة، أما عن الضروب، فأرى أن تشتريها من جيبك.

- حاضر أستاذ.. غداً عند الفجر سأكون هناك، إن شاء الله.

بعد جنون الليل بنحو ساعتين، حيث تكون الكلاب الشاردة في أوج نشاطها، كنت هناك على أطراف بلدة شبعا. كان السكون مطبقاً، وحركة المارة ضعيفة، ولم أر خلال تجوالي سوى بضعة أشخاص،بعضهم خارج من بيته وبعضهم عائد إليه، وقد هالهم وجودي مع بندقية صيد لا يعرفون سبب حملي لها، فألحظهم يبتعدون عني، إما خوفاً مني، أو ابتعاداً عن شرّ يغنّونه.

بعد مضي نحو نصف ساعة من ذرعي لأطراف البلدة جيئة وذهاباً مع السائق بسيارة البيك آب السكودا خصوص البلدية، لاح لي من بعيد كلبان، اكتشفت فيما بعد أنهما جعاري وجروه. كمنت لهما خلف زريبة أبقار مهجورة، وانتظرت اقترابهما مني. بعد لحظات أصبحا على مرمى البارودة، جهزت نفسي، وضعت الشعيرة على منتصف الجعاري الكبير، ثم بضغطة واحدة أرديته أرضاً. ركبت السيارة إلى جانب السائق واتجهت نحوه مسرعاً، وجدته ما يزال ينفق، فتركته يلفظ أنفاسه الأخيرة وحيداً ولحقت

بالجـرو الـذي كان يتدحرج علـى الأرض بقدميه الصغيرين مبتعداً عني، ولم تمض لحظات حتى كنت خلفه تماماً. توقفت بمحاذاته، فإذا بالجرو يتوقف عن الركض ثم يستدير نحوي ويضع عينيه في عينـي. كنـت أضـع فوهة البندقية بين عينيـه تماماً، وكان هو يلهث لهاث المرعوب المستسلم...

قـال لـي: لا تقتلنـي أرجـوك .. لقد قتلت أمـي منذ أيام حين كانـت تـزور خالتي في بلدة عيشـة، وها أنـت تقتل أبي اليوم، وأنا كبير أخوتي ومعيلهم الوحيد.

قلت: أنا في مهمة رسمية ولا مناص من تنفيذها.

قال: أعرف يا عم أنك ابن حلال ومتعاطف مع جماعة الرفق بالحيوان.

قلت: هذا صحيح، ولكن هذا الكلام يُقال همساً في المكاتب، وليس عند أهل الشأن والمناصب.

قال: إذن قررت قتلي ولا مجال لعتقي؟

قلت: نعم.. وللأسف ليس بين يديك للهرب منفذ أو طريقة.

وضغطت على الزناد، فإذا به ينفجر وتتطاير منه فتات اللحم . حملـت مـا تبقـى منـه ورميته فـي صندوق البيـك آب، ثم عدت أدراجي نحو الجعاري الكبير الذي كان قد نفق. وضعته إلى جوار فتات جروه في الصندوق، ثم رميتهما هناك، بعيداً عند أطراف بلدة عيشة، حيث مقبرة الكلاب الشاردة.

ضحوة ذلك اليوم ذهبت إلى البلدية، وأعلمت رئيس المكتب

الفني بتنفيذ المهمة...سألني: ما هي أخبارك؟

قلت:جعاري ونص فقط.

ابتسم وهو يستفسرني:جعاري ونص.. وما هذا النص؟

فأجبت: أقصد الجعاري وجروه.

مدّ يده في درج مكتبه وأخرج مظروفاً، ناولني إياه وهو يقول: هذه مكافأتك.

دسست المظروف في جيب سترتي بعد أن شكرته.. وخرجت.

كتبوا شهادة وفاتي
وتغيرت عند الحكومة سجلاتي

ورأيت فيما يرى النائم أنني متُّ، وأن رهطاً من الأطباء كانوا يتحلقـون حولـي، ويتحدثـون عن دائي وسـبب وفاتـي. ولما كنت أسـمع حديثهـم وأنـا علـى هـذا الحـال، فقد أدركـت حقيقة موتي وانقضاء سـنواتي، وإن هي إلا لحظات، حتى يضعوني في البراد، ليأتـي أهلـي وجيرانـي، فينقلوا جثماني إلـى البيت، ثم إلى المقبرة كي يدفنوني ويواروني تحت التراب.

ورأيـت أننـي مخطوف بقوة غيـر مرئية إلى نفق معتم، وأنني صرت خارج جسـدي الذي انخلع عني. وما إن بدأت أتأقلم مع وضعي الجديد حتى رأيت وجوهاً بشـرية تتوضح أمامي، فرأيت: أبي الذي يقضي محبوسيته في سجن عدرا، وأمي التي رحلت مع زوجها أبو زهدي إلى السـعودية، وملامح غير مرئية لوجه رئيس البلديـة. اقتربـت الوجـوه نحوي وعرضت نفسـها لمسـاعدتي كي أتجـاوز محنتـي، فقلـت لهم إني راحـل لا محالة، وإن عودتي قد تنقل أطباء المشفى من حالة إلى حالة، بعد أن كتبوا شهادة وفاتي وتغيـرت عنـد الحكومـة سـجلاتي، فانفضـوا من حولـي مبتعدين

عنـي وهـم يتهمونـني بالخبـل والجنون. مرّ زمـن لا أعرف مدته، أهو لحظة أم لحظتان، سـاعة أم سـاعتان، يوم أم يومان، شـهر أم شـهران، سـنة أم سـنتان .. حتى وجدت ريحاً عاتية تأخذني بعيداً إلى حائط عال يقترب من ألف ذراع، ففهمت لتوي أن هذا الجدار يفصل ما بين حياة الدنيا وحياة الآخرة، فاجتاحتني مشاعر عارمة من الفرح والسـعادة وأنا أقول لنفسـي: ها قد وصلت إلى الآخرة يـا سـعيد، فمـا الـذي بعد هذا كله تريـد؟ وفيما كنت أنتظر دوري بالعبـور، رأيـت رؤيـا العين، حبيبتي سـعاد تقـف على يميني وابن عمها الضابط على يساري. حاولت التحدث إليهما فلم يسمعاني وأظن أنهما لم يرياني، فلم أستغرب الأمر، لأنني قبل حين كنت قد تركت جسدي خلفي، وعدوت حيث الحائط وحدي. تشاغلت بالنظر إلى سـعاد حبيبتي، علها تنتبه إلى وجودي، فإذا بابن عمها الضابـط ينهـال علـيّ بالضـرب والوعيد: كفّ عـن حركاتك هذه يا ابن القحبةِ وإلا أرديتك بمسدسـي قتيلاً. وإذ أحاول إفهامه أن سعاد هي حبيبتي منذ أيامنا الماضية في دنيانا الفانية وأن ليس له فـي قلبهـا مـن نصيـب، أجده ينهال عليّ بالضـرب المبرح إلى أن فقدت وعيي...

وظللـت علـى هـذا الحال ردحاً مـن الزمان، إلى أن صحوت على أصوات تناديني وأيادٍ تهزني، وما إن فتحت عينيّ حتى رأيت جمعـاً غفيـراً مـن النـاس يتحلقون حولي بينمـا كان أحدهم يصيح بأعلى صوته: اتصلوا بالإسـعاف يا جماعة الخير، فالرجل بحاجة إلى إبرة ضد مرض الكَلَب.

وقال آخر: هذه الكلاب الشاردة خرّبت حياتنا والبلدية نائمة لا تكش ولا تنش.

وصاح ثالث: إنها مسعورة.

فقاطعه الأول بصوت مبحوح: كفوا عن الحديث واتصلوا بالإسعاف قبل أن يموت الرجل بين أيدينا.

في المشفى تحسنت حالي، وفهمت من الممرض الذي كان يعودني، أن كلاباً شاردة هجمت عليّ وكادت، لولا لطف الله، أن تقضم لحمي وتشفط شحمي، فشكرته سبحانه على نجاتي، وقررت في داخلي أن أهجر بارودتي وضروبي.

أمضيت في المشفى نحو ساعتين، ثم حملت نفسي وعدت إلى البيت. اتصلت برئيس البلدية وحكيت له ما جرى وطلبت منه أن يمنحني أسبوعاً من إجازتي السنوية، فوافق الرجل في الحال وتمنى لي الشفاء العاجل، ولم أشأ إخباره أنني قررت هجر بارودتي وضروبي، وأن عليه أن يجد مستخدماً غيري ليقوم بهذه المهمة.

في البيت، وفيما كنت ألملم بقايا فرحتي بالنجاة، تذكرت كتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" لمؤلفه العبد الفقير لله رفاعة ابن المرحوم بدوي رافع الطهطاوي، ويقول فيه: إن داء الكلب معروف لسائر الناس بوصفه وعمله الرديئين، وهو يتولد من طبيعة في الذئاب والثعالب والسنانير وخصوصاً في الكلاب، ومتى عض هذا الكلب الإنسان فإن الجرح من عادته أن يلتئم بالسهولة، كأنه غير متسمم، وبعد ثلاثة أسابيع إلى ثلاثة أشهر يُحسّ بالجرح

وجع مكتوم، فينتفخ أثره ويحمر ويقيح، ومادته تخرج حارة منتنة محمرة، ويذوق المريض الكآبة والخدر والكسل والبرودة، ويعسر عليه التنفس، ويمسك الوجع أمعاءه ويضطرب في نعاسه، يعطش عطشاً مهلكاً ويقاسي إذا شرب، ثم يعتريه الارتعاد من الماء والمائع، ويبح صوته، ثم يجن ويموت.

بعد أن أغلقت الكتاب وأعدته إلى مكانه في الخزانة، حمدت الله أن الكلاب التي عضتني لم تكن مسعورة، وأن المستشفيات ملأى بمصل يشفي المعضوض، وحمدته أيضاً لأنني لم أعش أيام الطهطاوي، ولن أضطر إلى استخراج الدم من جرح عضة الكلب وغسله بالماء والملح ، ثم كيه بحديدة بعد إحراقها في النار، كما جاء في الكتب القديمة والأخبار.

كان البيت حين دخلته مقلوباً رأساً على عقب، وأغراضه المتناثرة على نحو غير منتظم أثارت في نفسي الضجر. وكانت الصورة التي تجمع أبي وأمي وهي معلقة على الجدار، تكاد لا تُرى من كثرة الغبار، وحتى قصاصة الورق الملصوقة تحتها والتي كتبتُ عليها بخط عريض (هذا ما فعلاه بي هذان) قد خفّ حبرها وبهت لونها، ولم يعد في مقدور أحد غيري تهجئتها.

كانت هذه أول مرة أشعر فيها أن حياتي بائسة، وأنني لستُ يتيم الأم والأب فقط، وإنما يتيم الأصدقاء أيضاً، فمنذ يفاعتي لم يكن لي رفقة ورفقاء، وكنت مشغولاً بمتابعة أبي وأمي وهما يتشاجران. كان أبي عديم الحيلة، يعمل أسبوعاً ويقعد في البيت

شهراً، وكان جُلَ همّه تأمين علبة السجائر التي كان يمجها بشراهة، ولم يكن يحلق ذقنه أو يستحم إلا في المناسبات، ولا يخرج من البيت إلا لظرف طارئ أو شديد قوي. أما أمي، فقد كانت على النقيض، نشطة حركة تحب الحياة، وكنت أسمعها تتحسر على نفسها وهي تتملى وجهها عبر المرآة: إلى متى ستصبرين على هذه الحياة يا جليلة؟ وكنتُ رغم صغر سني أحسّ بألمها وأفهم قصدها، فأجدني أنظر بأسف إلى أبي المستلقي هناك على الطراحة في الزاوية، وهو يمج السجائر ويشرب الشاي، معتقداً لسنوات طويلة، أن مرضاً قد ألمّ به جعله كثير القعود في البيت.

وفي صغري، كنت أسمعها ليلاً تقول له معاتبة: ما بالك جامد لا تتحرك؟

وكنت أسمعه يرد عليها قائلاً: اتركيني أنا تعبان.

بعد سنوات راح أبي يقول لها : ما بالك جامدة لا تتحركين.

وراحت أمي تقول له: اتركني أنا تعبانة.

ولم يمض على تعب أمي هذا سوى بضعة أيام، حتى قيّض لأبي أن يضبطها عارية تموء تحت جارنا أبي زهدي، فحلف عليها يمين الطلاق، ثم انزوى جانباً، عند زاوية الغرفة، يلطم وجهه ويبكي.

بعد ذلك، أصبحت أكره النساء، من كليوباترا وعشتار إلى أمي التي خانت أبي، فأتخيلها حيناً دودة تتسربل في أرض رطبة نتنة، وحيناً آخر خراء يفسد ماءً عذباً، إلى أن وقعت عينيّ على سعاد، في ذلك الصباح، فإذا بها تسلبني قلبي وتتسيّد على عقلي، حتى

جعلتني أنسى ما فعلته أمي بأبي. يومها قلت لسعاد في نفسي، وأنا عائـد مـن أمانـة المحافظة إلى البلدية: أنت روحي ونور عيني.. ثم رحت أنشد وأقول:

يا أهل الحي رقوا وارحموا
مغرماً أضحى قتيل المقل
أنا مأسور ودمعي مطلق
في هوى الظبي الغرير الأكحل

ما جمعه الحب لا تفرقه السيارات والعمارات

ورأيت فيما يرى النائم، أن سعاد جاءتني إلى البيت بعد منتصف الليل تشكو أهلها وسوء معاملتهم لها، وأنهم مصرون على تزويجها من ابن عمها الضابط، الذي وعد أبيها أيضاً بسيارة ووعد أمها بخاتم من اللؤلؤ واسوارة. وختمت قائلة وهي تجهش بين يديَّ باكية: أنا لا أستطيع العيش من دونك، فانظر ماذا يمكنك أن تفعله.

قلت لها والدم يصعد إلى رأسي ويهبط: لا أحد في الدنيا يستطيع أخذك مني، فما جمعه الحب، لا تفرقه السيارات والعمارات، ولا الخواتم والإسوارات.

قالت: أنا أموت فيك.

قلت: وأنا أيضاً يا حبيبتي.

وظللنا نتحدث على هذا المنوال، حتى انقشعت عتمة ذاك اليوم وظهرت شمسه، فإذا بسعاد تقول لي: أنا جائعة.

قلت لها: عليك بالبراد ففيه المطلوب والمراد.

وبينما كانت سعاد في المطبخ تحضر الفطور، جلست وحدي

أقلب الأمور، بعد أن أدركت أنني غير قادر على مواجهة أهلها مع الضابط ابن عمها، فقلت لنفسي وأنا أسمع قرقعة الصحون من المطبخ: علينا أن نداري سفهاءنا ونحل بالحكمة والحيلة أمرنا.. فقررت أن تبقى سعاد في بيتي ولا من عرف ولا من سمع، خاصة أن أهلها لن يخطر على بالهم قط أنها عندي، وهم بالتأكيد نسوا أمر خطبتي، ولا يعرفون بدقة مكان عملي أو في أي حارة بيتي.

يومها لم أخرج من البيت، وكدت أقفل جوالي حتى لا يتصل بي أحد من البلدية، وكانت سعاد، وقد عادت لتوها من المطبخ، تضحك وتمرح، وكأن أمر أهلها لا يشغلها، ولا مطرح في قلبها لسواي.

سألتني وهي تتطلع إلى الكتب المصفوفة في الخزانة: هل قرأتها كلها؟

قلت: بلى.

قالت: ما أفضاك؟!

قلت: وأنت ألا تقرأين؟

قالت: أنا لا أحب القراءة.

قلت: وماذا تحبين؟

قالت: أحب الفرجة على التلفزيون.

قلت: أنا آسف يا حبيبتي فليس عندي تلفزيون.

قالت: بسيطة.. عندما أسحب مدخراتي من المصرف سأشتري واحداً.

وظللنا نتحدث على هذا المنوال إلى أن أدبر النهار، وهنا

راحت السكرة وجاءت الفكرة: أين ستنام سعاد؟ ولأن وجهها الحلو قد أخذني، ولحمها الأبيض البض قد سحرني، وصدرها المكتنز دوخني، فقد قررت بيني وبين نفسي أن أدعوها إلى النوم معي على السرير. وحين عرضت عليها عرضي، غضبت مني وصدتني، ثم قالت لي وهي تضع عينيها في عيني: إن حبي لك طاهر وأنا بنت مؤمنة ومن أهل الظاهر.

قلت لها: لا تثريب على كلامكِ يا حبيبتي، فما الذي يمكنني فعله إذن لأفعله؟

قالت: اكتب عليّ.

قلت: ومن أين نأتي في هذا الوقت المتأخر من الليل بالكاتب والشهود؟

قالت: هذه العقدة يمكننا حلها.

قلت: كيف؟

قالت: قل لي هل تزوجينني نفسك يا سعاد على سنة الله ورسوله؟

قلت: هل تزوجينني نفسك يا سعاد على سنة الله ورسوله؟

قالت: زوجتك نفسي يا سعيد على سنة الله ورسوله.

ولم تكد تعلن قبولها بالزواج مني، حتى وجدتها تخلع عنها قميصها وسروالها، وهي تهتف لي: ما أحلى الحلال.

وإذ ينفرط نهداها من خلف القميص مثل تفاحتين ناضجتين،وأجوسهما بيديَّ الاثنتين،أجدهما يتهاديان وكأنهما كرتا قدم. أما سعاد فقد كانت ترتعد ارتعاداً صخيباً، وتموء مواء لذيذاً،

وهي تهمس في أذني: أحبك وأموت فيك.

فأردُّ عليها قائلاً: وأنا أيضاً أحبك وأموت فيكِ.

ليلتها شعرت أن بيتي صار جنات خضر وحدائق زهر، وأنه أصبح يشبه سراي العسكرية الذي نزل فيه الإمبراطور الألماني وزوجته في دمشق.. خزائن ومصابيح وثريات وطنافس وشالات ومناديل وصدف وخزف وحرير وشلالات ماء وحمامات. فرأيت فيما يرى المبسوط الحالم أنني إمبراطور وأن سعاد إمبراطورة، وأن الليلة هذه ستكون ليلة الإمبراطور سعيد، الموظف في بلدية عيشة.

وبينما كنت أتعربشها من فوق، وسعاد المحبوبة تسحبني إليها من تحت، شعرت بالغرفة تهتز وكأن زلزالاً يعصفها، أو أنها ترقص على أنغام لا أسمعها. وما إن شعرت بالخوف على نفسي وعلى المحبوبة المستلقية تحتي، حتى سمعت أرضية الغرفة تقول: لا تجزع يا أخ سعيد فأنا مبسوطة لأن سعاد ستنام عليّ.

وأسمع السقف يقول: وأنا مبسوط لأن سعاد تستظل بظلي وتجلس تحتي.

وأسمع الجدران الأربعة تقول بصوت واحد وكأنها جوقة إنشاد: ألف مبروك للسكر نبات وعقبى البنين والبنات.

فأشعر إذاك بالسعادة تغمرني، وبأن لي أهلاً يفرحون لفرحي.. فقد أمسى السقف طبلاً، وأرضية الغرفة مزماراً، والجدران فرقة رقص تتمايل على أنغام انطلقت من فوقي ومن تحتي.. فيما كنت وسعاد على السرير، نهبط ونطير، تلفنا الورود وتجللنا الأقمشة الملونة المطعمة بخيوط الذهب والزمرد والمرجان.

صباحاً استيقظت على رنين هاتفي الجوال، فإذا بإدارة السجن تخبرنـي أن أبـي مريـض، وأنه في حالة خطرة، وعليّ المجيء قبل فوات الأوان. ارتديت ثيابي على عجل، وخرجت من البيت مسرعاً إلى سجن عدرا.

قال لي الضابط المسـؤول: أبوك حاول الانتحار ولولا لطف الله وسرعتنا في إسعافه لكان ميتاً الآن.

قلت: هل أستطيع رؤيته؟

قال: موجود حالياً في مستوصف السجن وأعتقد أنه نائم.

ثـم تنـاول هاتفـه وهو يعلق قائلاً: انتظـر لحظة لأرى إن كان قد صحا من نومه. تحدث إلى المسـتوصف، ثم قال لي: يمكنك رؤيتـه.. اذهـب مـن هنـاك عبر الممر وسـيكون المسـتوصف على يمينك.

خرجـت مـن مكتبه، مشـيت عبر الممر الطويـل المفضي إلى المسـتوصف. سـألت ممرضاً كان يقف جانب الباب: هل هذا هو المستوصف؟

قال: بلى.

قلت: كان أبي عندكم في حالة خطرة وأريد أن أراه.

قال: يجب أن تأخذ إذناً بذلك.

قلت: أخذته.

قال: ما اسم أبيك؟

قلت: حامد.. الرجل الذي حاول الانتحار صباح اليوم.

قال: عرفته.. كاد اليوم أن يدخل جهنم.. هيا اتبعني.

تبعته عبر ممر قصير، ثم أشار إلي أن أدخل إلى غرفة. دخلت، فإذا بأبي مستلق على سرير.

قلت له وهو مغمض عينيه نصف إغماضة: لماذا فعلت هذا يا أبي؟

قال: أريد أن أموت.

قلت: لماذا؟

قال: أمك القحبة تركتني وسافرت إلى السعودية وأنت منذ شهر لم تزرني.

قلت: أنا آسف.

لكنه لم يردَّ عليَّ، فعقبت قائلاً له: هل تريد شيئاً؟

قال: لا.

قلت: أنا ذاهب إذن.

قال: انقلع.. درب يصد ما يرد.

خرجت من المستشفى مكسور الخاطر، لأنني ما أحببت والدي يوماً كما يحب الأبناء آباءهم. كنت أحياناً أشعر بالحاجة إليه، أشكو له سوء أحوالي، وأحياناً أحس بشيء ما دفين في داخلي يدفعني إلى احتقاره ومحاولة نسيانه. كذلك الأمر بالنسبة إلى أمي، فقد مضى على سفرها نحو أربع سنوات، من دون أن أشعر يوماً بالشوق إليها. أحياناً أحس بأنني محتاج إلى أم تحوطني بجناحيها، وعندما أتذكر عريّها، تنتابني موجة من الغضب، تدفعني إلى كرهها والقرف منها.

وصلت إلى البيت، فإذا بدورية شـرطة تنتظرني. خير إنشـاء الله؟ سـألت رئيس الدورية، فأجابني: أنت متهم بخطف المدعوة سعاد الأغباني.

قلت: أنا؟!

قال: نعم أنت.

ثم وضع الكلبشات في يدي وقادني إلى السيارة.

فـي المخفـر كان المسـاعد رئيس المخفر وإلـى جانبه ضابط ينتظرانـي، ومـا إن أصبحـت قبالتهمـا، حتـى هجـم علـيّ الضابط وصفعني على وجهي، وهو يهدر قائلاً: أين سعاد يا ابن الكلب؟

قلـت ونقـاط الـدم تنـزف من أنفي: عن أي سـعاد تتحدث يا سيدي؟

قال: سعاد ابنة عمي.

قلت: أنا لم أرها منذ يوم خطبتها من أهلها.

قال: أنت كذّاب.

ثـم غمـز رئيس المخفر، ورئيس المخفر غمز رئيس الدورية، ورئيـس الدوريـة قادني من رقبتـي بعد أن غمز العناصر المتحلقين حولـي. أدخلونـي فـي غرفة وراحوا يتناوبون على رفسـي وضربي بهراوات مكسوة بالجلد حتى أغميّ عليّ. بعد وقت، دخل رئيس المخفر ومعه الضابط ابن عم سعاد إليّ، وقالا لي بصوت واحد: أين هي؟

قلت: لا أعرف.

قالا: إذن اكتب تعهداً بذلك وإن اكتشفنا أنك تكذب فالويل لك.

قلت: أنا جاهز.

ثـم كتبـت التعهـد وخرجت من المخفر أجـرّ قدمي جراً وأنا أسـأل نفسـي: كيف عرف هؤلاء السـحرة والمشـعوذون أن سـعاد جاءتنـي فـي المنـام وأنني نلت منها المنـى والمرام؟ فتعوذت بالله من الشيطان الرجيم، وعقبت بأن لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

متهم باغتصاب سعاد الأغباني
ابنة عم الضابط فلان الفلاني

ورأيت فيما يرى النائم، أن سعاد جاءتني تقول إنها حامل.

قلـت لهـا: وماذا سـأفعل مع ابن عمك الـذي كتبت له تعهداً بأنني لا أعرف عنك شيئاً؟!

قالت: يؤسفني أنك تخافه وتخشاه.

قلت: لا.. ولكن دخول المخفر يا حبيبتي ليس كالخروج منه.

قالت: ماذا تقصد؟

قلـت: لقـد رفسـوني بأرجلهم وضربونـي بأيديهم حتى خرج الدم من أنفي وأذني وفمي. فبكت سعاد على ما جرى لي، ودعت الله وهي ترفع يدها نحو السماء، أن يفقر ابن عمها الضابط حتى يصبـح علـى الحصير، ثم يرسـل له سـبحانه قبضة مـن داء الفالج. وما إن قبلتها من الخد والجبين حتى اقتنعت سعاد بضرورة إسقاط الجنيـن، فكـدت أطيـر من الفرح بعـد موافقتها، ليس خوفاً من ابن عمها الضابط فقط، وإنما خشية أن يكون الجنين بنتاً فتمشي مجرى جدتها التي في السعودية.

عند الفجر دق جرس الباب، فشعرت بشيء من الخوف والارتياب، وقلت في نفسي: من هذا القادم إليّ في هذا الوقت؟.. فإذا بثلاثة رجال يقولون لي من خلف الباب إنهم من الفرع 999، وقبل أن آخذ منهم الكلام حملوني إلى السيارة في عز الظلام (الوقت عند الفجر)، وظللت على هذا الحال، إلى أن وصلت بنا إلى الفرع، فأنزلوني جراً وراحوا يتناوبون عليّ ضرباً ورفساً، حتى وصلنا إلى غرفة فسيحة، ذكرتني بأفلام الرعب القبيحة.

قلت لهم: أرجوكم قولوا لي ماذا فعلت؟

قالوا: انتظر حتى يأتي المعلم.

جاء المعلم الذي كان بحجم الفيل وقال لي: أنت متهم باغتصاب القاصر سعاد الأغباني ابنة عم الضابط فلان الفلاني.

قلت: أعوذ بالله يا سيدي، فأنا بريء من هذه التهمة.

وما كدت أنهي كلامي حتى لطمني لطمة كادت تكسر فكي وأسناني.. ثم صاح: أنت لادنيٌّ الهوى والمرام وليس لك عندنا أصلاً مقام.

قلت والدم ينفر من فمي: لم أفهم يا سيدي ما تقول!

قال: أنت إرهابي من جماعة ابن لادن ومكانك هناك في غوانتانامو أو لاهاي.

فارتعدت إذاك أوصالي وعرفت إلى أي درك وصلت إليه أحوالي.

ثم أردف: تقول التقارير التي عندي إنك كنت مع أبي سياف في الفليبين، ومع ابن لادن في تورا بورا، ومع الزرقاوي في العراق، ومع...

فقاطعته قائلاً: أرجوك يا سيدي فأنا طوال عمري بحالي وليس لي علاقة مع من ذكرت.

لكنه لم يأبه لكلامي، وتناول هاتفه الجوال وتحدث به أمامي..

- آلو..

- نعم.

- أنا الضابط فلان الفلاني من الفرع 999 السوري.. أريد السيد جورج دبليو بوش من فضلك.

- نعم يا بني...أنا دبليو بوش.

- سيدي الرئيس، لديّ مقالة أريد أن أفرغها، وعرضاً أود أن أقضيه.

- أفرغ ما عندك، فإنني مصغٍ إليك، وكلّي مقبلٌ عليك.

- سيدي الرئيس، لديّ إرهابي حاربكم مع المدعوين بن لادن في تورا بورا، والزرقاوي في العراق.

- وهل معلوماتك دقيقة يا بني؟

- نعم يا سيدي.. ولدينا عنه إضبارة تأخذه إلى أكبر نظّارة.

- حسنٌ يابني.. لقد فهمت مقالك ووصلني عرضك.. فكم تطلب فيه؟

- أنتم المُقدمون فينا والفضلاء علينا، وما عسى أن يكون مبلغ تقديري عند تقديركم وفهمي في هذه المسائل عند فهمكم.. ثم إنكم كرماء ونحن نستأهل.

- يكفي مليون؟

- ليرة؟

- لا يا بني.. نحن نتعامل بالدولار.

- أنا موافق يا سيدي.

- حسناً.. بعد خمسة دقائق تكون الطيارة عندك.. تسلمه ونسلمك.

وغبت من توي عن الوعي.. ساعة، ساعتان، يوم، يومان... إلى أن وجدتني في حضرة جدي الأول ابن سيرين المعروف بكتابه الشهير (تفسير الأحلام الكبير) وهو يقول لي بعد أن بسمل وحَمَد: اسمع يا بني.. اتق الله في اليقظة ولا يخيفك ما رأيت في المنام، لأن الرؤيا تأتي على ما مضى وخلا وفرط وانقضى.. فتذكر عنه بغفلة عن الشكر قد سلفت، أو بمعصية فيه قد فرطت، أو بتباعة منه قد بقيت، أو بتوبة منه قد تأخرت...

ومن حضرة ابن سيرين إلى حضرة رئيس البلدية الذي كان غاضباً مني أشد الغضب بسبب الشكوى التي رفعها بحقي رئيس المكتب الفني ذكر فيها أن المدعو فلاناً الذي هو أنا يرفض مزاولة عمله كصياد للكلاب الشاردة وأنه يطالب بعمل بديل عنه في البلدية.

قال مزمجراً: يا خراء.. هل تريد أن تجلس مكاني؟

قلت: أعوذ بالله يا أستاذ.

قال: هيا إذن أغرب عن وجهي ولا تعد إلى هذه النغمة مرة ثانية.

قلت: حاضر يا أستاذ.

وخرجت من عنده مهموماً وأنا أندب حظي العاثر. كنت أود

أن أقول له: لقد مللت من هذه المهنة يا أستاذ وأن الكلاب، كما تعلم، كادت منذ أيام أن تنهش لحمي وتقرمش عظمي لولا لطف الله وأهل الخير. وكنت أود أن أقول له: إنني لم أستطع حتى الآن نسيان جرو الجعاري وهو يلهث وينظر في عيني يرجوني أن أتركه يذهب إلى حال سبيله. وكنت أود أن أقول له: إنني أخشى وأخاف أن تطالب جمعيات الرفق بالحيوان ذات يوم بمحاكمتي في لاهاي كوني إرهابياً صاحب إبادات جماعية للكلاب الجعارية. وكنت أود أن أقول له راجياً: اعتقني من هذا العمل كرامة لله واكسب ثواباً فيّ....

حين عدت إلى البيت وجدت سعاد في انتظاري.

سألتني: لماذا تأخرت يا حبيبي؟

أجبتها: أنا لم أتأخر ولكن أنت تأخرت.

قالت: يبدو أنك غاضب مني.

قلت:نعم غاضب لأنكِ لم تردي على رسائلي.

قالت: أيّ رسائل؟!

قلت: التي وضعتها لك في صندوق بريد أمانة المحافظة.

قالت: عن أي أمانة محافظة تتحدث؟! لقد انتقلت من هناك منذ سنتين.

ولأنني كنت تعباً ونعسان فقد ارتميت على السرير لأنام، فأخذتني سنة من النوم، وإذ أستيقظ من نومي لا أجد سعاد بقربي، فحزنت حزناً شديداً لأنني نسيت أن أسألها، أهي بالغ أم قاصر.. عذراء أم ثيّب؟

أنا موظفٌ في البلدية
وعملي صيادٌ للكلاب البرية

ورأيت فيما يرى النائم أنني من كتّاب المقال في جريدة (لسان الحال) التي يملكها السيد خليل أفندي سركيس، وأنني بعد أن ضقت ذرعاً بالحكومة العثمانية وقوانينها الهمايونية ومن المكتوبجي حسن فائز أفندي، قررت الهجرة إلى إنكلترا وإنشاء جريدة حرّة، لأقول فيها ما أريد. وصلت إلى لندن في غرة محرم من عام ألف وثلاثمائة وثمانية هجري، ولم تمض بعد على إقامتي بضعة أسابيع حتى حدث ما عكّر صفوي، إذ قرأت في الجرائد العثمانية التي تصل إلى عاصمة الإمبراطورية البريطانية، أن فلان الذي هو أنا يريد تأسيس جريدة يسبُّ فيها حكومة الدولة العلية وينشر قصص ظلمها للرعية، وأن اسمها (رجع الصدى) الأسبوعية، فقمت لتوي أحرر بياناً لتوزيعه على الصحف اللندنية والباريزية، ومما كتبته فيه: أنه طالما ارتفع من أنحاء الشرق صراخ طبق جوانب الأرض صداه فلا غرو أن يُردّد رجع الصدى صراخ الأمة في أطراف المعمورة. وكتبت: لقد اقتصر الكلام (في الجرائد العربية) على أحبِّ وهام وأحاديث ما أنزل الله بها من سلطان،

وقضي على الرأي العام فصار حياً في جسد ميت (....) فإلى متى تصمّ الآذان، وقد ثبت من الصوت اللسان، ومن حرقة البيان وجود الجنان.. ثم ختمتها بقصيدة قلت فيها:

حتى متى لا نرى عدلاً نُسرّ به	ولا نرى لولاة الحقّ أعوانا
مستمسكين بحقّ قائمين به	إذا تلوّن أهل الجور ألوانا
يا للرجال لداء لا دواء له	وقائد ذي عمى يقتاد عميانا

ثم نشرت هذا البيان مع القصيدة، في قادم تلك الأيام، في كتاب أسميته (غرائب المكتوبجي) وقد لاقى رواجاً في مصر وسوريا وعموم أقطار الدولة العثمانية، ما دفع والي الشام وبتحريض من المكتوبجي سعادتلو عزت أفندي مجيب، إلى إصدار قرار للعساكر السلطانية يأمرهم بإلقاء القبض عليّ وإيداعي الحبس، ولكنني تواريت عن عيونهم إلى أن يأذن الله لي بالسفر خارج البلاد ويفتح لي باب النجاة....

وما إن فتحت لهم الباب، حتى فهمت كل شيء. كانوا سبعة رجال وثامنهم ملتجٍ في عمق الظلمة، عند زاوية الشارع.

سألني من يتقدمهم: أنت سعيد؟

أجبته وقلبي يكاد يسقط إلى بطني: نعم أنا سعيد.

وأشار إلى معاونيه بحركة من رأسه أن ادخلوا، بينما أغلق آخرهم الباب خلفهم وظل واقفاً بالقرب منه لا يتحرك.

سألني كبيرهم وهو رجل خمسيني له شاربان أصفران وعينا ذئب: وحدك في البيت؟

قلت: نعم وحدي.

هزّ رأسه، مط شفتيه إلى أمام، ثم طلب مني الدخول قدآمه إلى الغرفة. أبطأت قليلاً إثر ارتخاء ألمّ بساقيّ، فدفعني بقبضته إلى أمام وهو ينبر بي: لا تتمسكن.. هيا تحرك.

ثم قال لمرافقيه: فتشوا البيت جيداً.

قلبوا البيت عاليه على واطئه،ثم عادوا إليه يقولون: لم نجد شيئاً يا سيدي.

أمسك بياقة قميصي ودفعني قدآمه وهو يقول: هيا امش قدامي.

قلت له: إلى أين؟

قال لي: إلى بيت خالتك.

قلت له: أنت تأمر سيدي.

عصبوا عيني وربطوا يدي إلى خلف، ثم أخرجوني إلى الشارع وحشروني داخل سيارة. انطلقت بنا لبضعة كيلومترات وتوقفت. دفعني أحدهم خارج السيارة فيما كان كبيرهم يقول لهم: ضعوه في رقم ثلاثة ولا تدعوه ينام قبل أن تطيبوا خاطره.

في الزنزانة رقم ثلاثة رأيت خالتي سماح مستلقية على الأرض وهي تئن..

سألتها: ماذا تفعلين هنا يا خالتي؟

همست وهي تزحف نحوي: اخفض صوتك يا ولد فالجدران هنا لها آذان.

ثم أعقبت قائلة: زوجي الحقير اتهمني بالتخابر مع الأعداء

بعد أن رآني نائمة مع جارنا أبو رشدي.

وأردفت وهي تكاد تبكي: ما هي أخبار أمك؟

قلت: إنها بخير ولا تكف عن الاعتمار والحج في السعودية مع زوجها أبي زهدي.

قالت: بعد أن تخرج من هنا بلغها سلامي فقد اشتقت إليها، وقل لها إن خالتي سماح تقول لك حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً، وأنها مشتاقة لزيارة بيت الله الحرام.

صباحاً، فُتحت كوة الباب، كانت جلجلة الأقفال وقرقعة أحذية الحراس تهمي نثيثاً في أذني. مدّ الحارس رأسه إلى الداخل وقال لي بصوت أجش: استعد لمقابلة سيادة المحقق.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أقف فيها أمام محقق من لحم ودم، وكنت قد رسمت في ذهني صورة مخيفة عنه من خلال ما سمعت أو قرأت. كانت صفحة وجهه المائلة إلى الحمرة تدل عن طيبة وأنس، وحركاته وهو يتصفح الأوراق المرمية قدامه على الطاولة توحي بالهدوء والاتزان. ليس له كرش ضخم كما تصورت ولا نظارة سوداء تخفي زوغان عينيه كما اعتقدت. مرت اللحظات في غاية البطء، كنت خلالها وأنا أقف كالألف أمامه، أمسح بعيني المنكسرتين أغراض المكتب: الطاولة الخشبية بلونها المحروق، المقاعد وهي مصطفة بانتظام على شكل خطين معكوفين، الستائر المغبرة التي تربط بجلال مهيب سقف المكتب بأرضيته.

رفع رأسه بعد حين، وهو يزيح الأوراق المكومة أمامه على

الطاولة وقال لي: أنت متهم بإنشاء موقع إلكتروني اسمه رجع الصدى وعنوانه www.rajaaalsada.com

قلت: عن أي موقع تتحدث يا سيدي؟ أنا موظفٌ في البلدية وعملي صيادٌ للكلاب البرية، ولا دخل لي بهذه الأمور لا من قريب ولا من بعيد..

ثم أعقب يقول وكأنه لم يسمعني: ومتهم أيضاً بنشر بيان على الموقع تحرض فيه الإنكليز والأمريكان علينا وتشتم الحكومة بحجة ظلمها للشعب.

أرجوك يا سيدي.. أنا بريء من هذه الفرية ويمكنك أن تسأل عني رئيس البلدية.

قال: أفهم منك أنك لا تريد الاعتراف؟

قلت: صدقني يا سيدي لا أعرف عن أي شيء تريدني أن أعترف.

فصاح بي من غضب وهو يلوّح بيده: سترى يا كلب بماذا أريدك أن تعترف.

ثم التفت نحو الباب بعينين تقدح منهما الشرر ونادى بصوت جهوري عال: أدخل يا عشماوي ونفذ بهذا المتآمر الجبان حكم الإعدام.

وما إن دخل عشماوي وبيده الأنشوطة، حتى صحت من هلع صيحة مدوية اهتزت من دويها أرض المكتب والحيطان... فإذا بجاري يدق الباب عليّ بلهفة وهو يستفسر مني سبب صيحتي وهلعي، فتعوذت بالله من الشيطان الرجيم،ثم قلت له: لا بأس

عليـك فأنـا كمـا تـرى في صحـة وأمان، ولكن أرجـوك أن تتركني وشأني حتى أنفرد بكتاب جدي ابن سيرين المسمى تفسير الأحلام الكبيـر. وبعـد انصرافه انزويت بنفسـي مـع محتواه، وأنا أحمد الله الذي لا يُحمد على مكروه سواه.

قلت: هذه واحدة يا دكتور

قال: وما هي الثانية؟

ورأيت فيما يرى النائم، أنني حمّال أتجول في سوق النسوان، وأن إمرأة بارعة الجمال تقف قبالتي وتقول: احمل قفصك واتبعني. فوجدتني أتبعها وأنا في دهشة وذهول، وكأنني أمشي خلف ملاك ملتف بإزار من ذهب مع حاشيتين من قصب. وبعد أن مشينا بضعة أمتار وقفت أمام دار، طرقت الباب فإذا برجل يخرج إليها، أعطته مئة ليرة فناولها مقداراً من الجبن والزيتون، فوضعته في القفص وهي تقول: هيا اتبعني. فقلت لنفسي وأنا أتلصص على قفاها: ما رأيت في عمري أبرك من ردفيها. ثم حملت القفص وتبعتها. وما هي إلا بضعة أمتار أخرى حتى وقفت أمام دكان وهتفت لصاحبه: أعطني رطلاً من الموز ورطلاً من التفاح ورطلاً من البرتقال، ووضعتهم في القفص وهي تقول: هيا احمل قفصك واتبعني. وبقينا على هذا المنوال، من دكان إلى دكان، شيء من هذا وشيء من ذاك، إلى أن قلت لها وقد أعيتني أحمالي: لو أعلمتني يا سيدتي لجئت معي ببغل ساعدني. فابتسمت على ما جرى لي ولكنها لم تأبه لحالي. وظللنا نمشي إلى أن أتينا داراً مليحة قدامها رحبة

فسيحة، عالية البنيان مشيدة الأركان. دقت على الباب دقاً لطيفاً، فإذا بالباب ينفتح وتظهر من خلفه سعاد، وبعد أن شعرتها تسلب عقلي ويكاد القفص من دهشتي أن يسقط من فوق رأسي، صحت بها:ماذا تفعلين هنا؟

قالت:بلا فلسفة.. أدخل الآن ودعنا من ذلك الزمان الذي فيه أبي وأمي والحرامي ابن عمي.

ثمّ دخلت البيت مع قفصي وأنا أتبع المرأة التي استأجرتني، ومشيت حتى وصلت قاعة فسيحة في وسطها سرير من المرمر مرصع بالدر والجوهر، منصوب عليه ناموسية من الأطلس الأحمر، أطلت من داخله صبية بعيون بابلية وقامة ألفية ووجه كأنه من الكواكب الدرّية. التفت إلى سعاد التي كانت تقف إلى جانبي وقلت لها: أنا في حلم أم علم؟

فضحكت مني وهي تقول: أنت في علم يا حبيبي.

قلت: ما الحكاية؟

قالت: أدخل الآن واغتسل في الحمّام وبعدها أروي لك الرواية......

وروت لي سعاد ونحن مستلقيان على سرير المرمر، كيف خطفها أحد الفرسان وكيف لبث معها بضعة أيام حتى هلك، وكيف ترك لها بعد موته كل ما ملك.. ورجتني أن أعيش معها في سبات ونبات ونخلّف صبيان وبنات.

قلت لها: أنت تعطفين عليّ يا حبيبتي سعاد، وأنا كما تعرفين

لست حمالاً، وإنما موظفٌ محترمٌ في بلدية.

فهمست في أذني ترجوني ألاّ أرفع صوتي حتى لا ينكشف أمرها وأمري.

فوجدتني أقول لنفسي: لابأس..فأنا لست أفضل من حمّال بغداد، في قصة أختنا المسكينة شهرزاد، مع الملك الظالم الناقم على النساء.

ورأيت فيما رأيت، أن عسساً اقتحموا البيت وسحبوني من حضن حبيبتي وراحوا يدفعونني أمامهم دفعاً، وأنا أرجوهم أن يتركوني بحالي، فيما كانت سعاد تولول في وجوههم وتستغيث...

سألني صاحب الشرطة : ما الذي جاء بك إلى هنا؟

قلت: جئت أبحث عن حبيبتي سعاد.

قال: أنت قاتل متنكر بثوب حمّال.

قلت: أقسم لك يا سيدي يا صاحب الشرطة أنني لست قاتلاً، وما عملي في الحمالة إلا لسد الرمق، إلى أن يجمعني الله بحبيبتي سعاد.

قال: أولاً هذه ليست سعاد وإنما تورهان زوجة المرحوم جيزان الذي كان، رحمة الله عليه، فارس فرسان مولانا السلطان، أما ثانياً فأنا لست صاحب شرطة، وإنما رئيس جمعية الرفق بالحيوان.

وتذكرت كيف همست سعاد قبل حين في أذني، ترجوني ألا أرفع صوتي، حتى لا ينكشف أمرها وأمري، فقلت لصاحب

الشرطة: لقد أخطأت يا سيدي يا صاحب الشرطة ومنكم السماح.

فـردّ علـيّ غاضباً: قلت لك أنـا رئيس جمعية الرفق بالحيوان يا حيوان ..ألا تفهم؟

ثم أعقب يقول لعسسه: ضعوه على الخازوق ولا ترفعوه عنه حتى يعطينا قائمة بعدد الكلاب الجعارية التي قتلها هذا الهمجي.

ومـا كاد ينهـي كلامـه، حتـى أظلمت الدنيا فـي عيني، وغبت عن الوعي....وما إن عاد وعيي واستيقظت،حتى حمدت الله أنني نائم على سريري، وأن لا رئيس جمعية الرفق بالحيوان ولا عسس حولي، وأن ما رأيته كان كابوساً مثله مثل بقية كوابيسي.

قـال لـي حاجـب رئيـس البلديـة: الأسـتاذ مشـغول اليوم ولا تستطيع أن تراه.

قلـت: المسـألة بالنسـبة إلـيّ حياة أو موت ولـن أتزحزح من قدّام الباب قبل أن أراه.

قـال: إذا كان الموضـوع خطـر إلى هذه الدرجة فانتظرني إذن لأتدبر أمره.

دخل الحاجب إلى المكتب وأغلق الباب خلفه بعد أن طلب مني الانتظار.. ولـم تمض ثوان حتى خرج يقول لي: تفضل ..حظك يفلق الصخر، لأن مزاج الأستاذ اليوم جيد.

وتفضلت...

سـألني الأسـتاذ رئيس البلدية دون أن ينظر في وجهي: نعم.. ماذا تريد؟

قلت: أرجوك يا أستاذ أن تعفيني من قتل الكلاب.

قال وهو ينظر هذه المرة في وجهي: وما هي الأسباب؟

قلت: ليلة أمس، ولولا لطف الله، لكنت الآن مخوزقاً لا محالة، بسبب قتلي للكلاب.

نهض رئيس البلدية من خلف مكتبه واقترب مني، ثمّ وضع يده على كتفي وهو يقول:أنت يا بني مخبول أم مجنون..ألم نتحدث في هذا الموضوع من قبل؟

قلت: لا هذه ولا تلك يا أستاذ.. فجمعية الرفق الحيوان لن تتركني في حال سبيلي، وهي تطاردني في ساعات يقظتي ونومي، وأخشى أن يأتي اليوم الذي تحاكمني فيه على جرائمي، فتخوزقني أو على أقل تقدير تحبسني.

هزّ رئيس البلدية رأسه، ثمّ التفت نحو الباب وصاح بصوت عال: يا خليل.

ودخل الحاجب خليل إلى المكتب وهو يقول: نعم يا أستاذ؟

قال:خذ سعيد إلى مستوصف أمانة المحافظة ودعهم يفحصونه.

فاعترضته قائلاً: أنا لست مريضاً حتى يفحصوني.

ولكنه لم يأبه لاعتراضي، وتابع يقول للحاجب، بعد أن كتب عدة كلمات على قصاصة ورق صغيرة، دسّها في جيب خليل: أعطها للدكتور، ولا تنس أن تجلب لي معك تقريراً عن حالته.

فردّ عليه الحاجب وهو يشرع بإخراجي من المكتب: حاضر يا أستاذ.

كان المستوصف مزدحماً بالمرضى، ورأيت في البهو اثنين من صيادي الكلاب يقفون قرب الباب، وهم في حالة من التعب والإرهاق مثلي. أحدهما موظف في بلدية كوم الحجر والآخر في بلدية أم الخناجر. لم تربطني أي علاقة بهما ولم يسبق لي أن تحدثت إليهما، وكم وددت أن أسألهما من الذي أرسلهما إلى المستوصف، وهل هما فعلاً مريضان، أم أنهما مرسلان غصباً عنهما مثلي؟

بعد نحو ساعة جاء دوري، فدخلت إلى الطبيب ومعي الحاجب، فبادرنا قائلاً: من منكما المريض.

تقدم نحوه خليل الحاجب وناوله قصاصة الورق وهو يقول: يسلّم عليك رئيس بلدية عيشة وأرسل لك هذه الورقة.

تناول الطبيب الورقة، قرأها،ثم قال له: أنت المريض؟

فردّ عليه خليل:لا يا دكتور.

ثمّ أشار إليّ وهو يعقب قائلاً: هذا هو المريض.

فطلب منه الطبيب أن ينتظر في الخارج حتى يفرغ من فحصي ومعرفة دائي وعلّتي.

بعد أن خرج الحاجب من الغرفة، قرأ الطبيب الورقة مرّة ثانية، ثم طلب مني الجلوس على المقعد فجلست.

سألني: بماذا تشعر؟

أجبت: أنا لا أشعر بألم يا دكتور، وإنما لي طلب عند رئيس البلدية، ولا أعرف لماذا أرسلني إليك.

قال: وما هو طلبك؟

قلت: إعفائي من مهمة صيد الكلاب.

قال: وما السبب؟

قلت:لم أعد أريد قتلها.

قال: ولماذا لم تعد تريد قتلها؟

قلت: يقولون إن قتلها حرام.. ثم أنني أصبحت أخاف من ملاحقة جمعيات الرفق بالحيوان.

قال: ومن قال لك إنّ قتل الكلاب حرام؟ ثمّ أن جمعيات الرفق بالحيوان هذه لا تدرك مخاطر داء الكلَب.

قلت: هذه واحدة يا دكتور..

قال: وما هي الثانية؟

قلت: إنني فيما مضى من أيام، قتلت جرواً جعارياً صغيراً بعد أن رجاني أن أتركه في حال سبيله، ولكنني لم أفعل وضربته ضربة ، جعلته ينفجر بين قدمي.

قال: وما الغريب فيما فعلت؟

قلت: إنّ نظرته المستجدية وهي تخترق عينيّ لم تغب عني وما زالت تطاردني وتعاتبني.

قال: هذه أوهام ستزول مع الأيام.

ثمّ تناول علبة حبوب من الخزانة وناولني إياها وهو يقول: خذ منها ثلاث حبّات كل يوم وستكون على ما يرام.

وقبل أن أهمّ بالخروج من عنده، استوقفني وسألني: هل تعرف لماذا يذهب الناس لصيد الطيور والأرانب والغزلان؟

قلت: من أجل لحمها.

قـال: لا.. لحـم الأغنـام والأبقـار كثيـر، ولكنهـم يصطادونها لكـي يسـتمتعوا بقتلهـا، وحضرتـك تريد الهرب مـن متعة يدفعون لك أجرها.. فيا سبحان الله.

خرجـت مـن المسـتوصف وأنا أحمـل علبة الحبـوب بيدي، ومـن حسـن حظـي لـم أر الحاجب خليل ينتظرني، فرحت أمشـي في الشـارع حزيناً وحدي، فإذا بشـريط الصور يعاودني من جديد، فوجدت نفسـي أستسـلم له وصخب السـيارات يلفني لفاً ويهزني هزاً.. فكانت صوره تأتيني صورة تلو الصورة، تتحلق حولي وتحيط بي من كل حدب وصوب، وصوت الطبيب يلاحقني:.. يصطادونها لكي يستمتعوا بقتلها. وفيما كنت حزيناً وخائفاً ومدهوشاً، جاءتني سعاد وجعلت تصرخ من ألم لم تسمع مثله أذناي ولم تره من قبل عيناي،فوجدتنـي أتلقفهـا بيـن ذراعيّ وأنا أهتف لها: أقسـم بالذي بيننا يا سعاد أن أظل أذكرك وأحفظ حبك ما حييت. وبكت سعاد بحرقـة طفـل فقـد صدر أمه، ثمّ لبثت حزينة كئيبة بين ذراعيّ، فإذا برجل ملتح يقترب منا وينهرنا بصوت جهوري: أتمارسـان الرذيلة فـي الشـارع يـا كفـرة.. فإلـى جهنم أمثالكمـا وبئـس الفعل وبئس المصيـر. ومـا أن غـاب الرجـل الملتحـي عن عينـي، حتى اختفت سـعاد مـن بيـن ذراعـي، ولـم أعثر لها على أثـر، فرفعت يدي نحو السماء وقلت: اللهم اخسف هذا الملتحي مع من خسفت وخلصنا منه إلى أبد الآبدين يا رب العالمين.. آمين.

تسقط دكتاتورية الإنسان على الحيوان

ورأيت فيما يرى النائم، أنني طعنت بمدية رئيس البلدية، وأن الشرطة حضرت وفتحت بحقي قضية. ومع أنهم وعدوني بالإعدام شنقاً، فإن كلامهم لم يزدني خوفاً أو حنقاً. وظللت رابط الجأش وكأنني ما قتلت سوى جحش.. وسألت نفسي: لماذا لم أضربه ضرباً ببارودتي بين عينيه واكتفيت فقط بالمدية لشق كليتيه.

ورأيت، أنّ الصحافة كتبت عني وأنّ جمعيات الرفق بالحيوان ناصرتني. وفي يوم المحاكمة الموعود جاءتني وفود ووفود، وكلها تعلن تضامنها مع فعلتي، كونها متفهمة لقضيتي. وكان بعض أعضائها يرفعون لافتات كُتب عليها (الحيوانات ضحية الانحطاط الثقافي) و(تسقط دكتاتورية الإنسان على الحيوان) و(عاش سعيد صاحب الرأي السديد والعزم الشديد) ووزع على الجمهور كرّاس صغير يحكي عن تاريخ هذه الجمعيات، مع لمحة مختصرة عن أول مؤسس لها وهو المدعو ريتشار مارتين، عضو البرلمان البريطاني، الذي كان له شرف الريادة في تأسيس أول جمعية باسم الجمعية الملكية للرفق بالحيوان عام 1824 ميلادي.

سألني القاضي: يا متهم سعيد لماذا قتلت رئيس بلدية عيشة؟

قلت: لأنه أجبرني على قتل أرواح بريئة.

قال:يا متهم سعيد وضّح لمقام المحكمة.. ماذا تقصد بأنه أجبرك على قتل أرواح بريئة؟

قلت:يا سيدي القاضي لقد أجبرني على قتل الكلاب بطريقة غير رحيمة مستغلاً حاجتي للوظيفة.

قال:يا متهم سعيد، إن قتل الكلاب الشاردة لا يمنعه القانون، بل هو أحياناً دفع لبلاء داء الكلَب وهو بلاء أعظم، ثم أنك موظف في البلدية بصفتك قاتلاً للكلاب البرية...

فقاطعته قائلاً: عفواً سيدي القاضي.. أنا موظف في البلدية بصفة مراسل للمعاملات الرسمية، ولكن رئيس البلدية المقبور غيّر صفتي وحولني إلى قاتل مأجور.

وبعد أن تهامس القاضي مع معاونيه اللذين على يمينه وعلى يساره، صاح قائلاً بصوت جهوري: حكمت المحكمة حضورياً على المتهم سعيد بن فلان المحبوس في سجن عدرا، بالموت شنقاً لقتله رئيس بلدية عيشة.

وما أن نطق القاضي بالحكم حتى هجم أنصار جمعيات الرفق بالحيوان على قاعة المحكمة وهم يهتفون بصوت واحد (يسقط قتلة الحيوانات ضحايا الانحطاط الثقافي) و(تسقط دكتاتورية الإنسان على الحيوان) و(عاش ريتشار مارتين رجل المحبة والرفق بالحيوان) وهتافات أخرى تدعو إلى تبرئتي، ونزع الأنشوطة التي سأشنق بها عن رقبتي. وكان من بين المهاجمين حبيبتي سعاد التي

قالت لي: لا تأبه لما نطق به القاضي يا حبيبي فسوف نستأنف الحكم.

وأعقبت تسألني: هل تريد شيئاً مني؟

قلت: نعم يا حبيبتي.. حبذا لو أرسلت لي إلى الحبس ربطة خبز وعلبة حلاوة.

قالت لي: حاضر يا حبيبي.

ثم تركتني مسرعة وشرعت تهتف مع الهاتفين.

في سجن عدرا التقيت أبي الذي قال لي: ماذا فعلت يا حمار حتى جاؤوا بك إلى هنا؟

قلت له: قتلت رئيس البلدية.

قال: وما حكمك؟

قلت: الإعدام شنقاً.

فتهلل وجه أبي من الفرح وقال: ألف مبروك.

ثم وجدت نفسي أدس رأسي في حضنه وأنا أضحك مبتهجاً، بينما كان يهمس في أذني: ما هي أخبار القحبة أمك؟

فأجبته وأنا ما أزال مبتهجاً: جيدة.. لقد أدت العمرة هذه السنة أيضاً، وشغل زوجها عال العال.

فإذا بأسارير وجهه تنفرج وهو يقول: الحمد لله.. الآن أستطيع الموت وأنا مرتاح البال بعد أن اطمأنت نفسي عليك وعلى أمك.

ووضع رأسه على الوسادة وأغمض عينيه.

قلت له: هل مت يا أبي؟

قال:ليس بعد.. ولكني سأنام نوم أهل الكهف.

سألته: هل تريد شيئاً؟

فأجابني محتداً: دعني أنام يا........

صباحاً، كان الأستاذ حميد، الذي طعنته بمدية ليلة أمس، يقوم بجولة تفقدية على مكاتب البلدية. سألني عما حدث معي نهار أمس مع الطبيب، فقلت له: لقد أعطاني علبة حبوب وقال لي إن صحتي ستكون جيدة.

قال: ألم يعطك تقريراً عن حالتك؟

قلت:لا..لم يعطني.

هزّ رأسه، ثمّ قفل عائداً إلى مكتبه، مودعاً مثلما استقبل من الموظفين، بكلمات حارة من الترحيب والتهليل.

مساء، ذهبت إلى صديقي الذي أستعير منه الكتب، واسمه سمير، ورجوته المساعدة والعون والتدبير. قلت له:إنني كرهت قتل الكلاب البريئة وأصبحت أخشى الله وجمعيات الرفق بالحيوان.. فما الحل برأيك؟

قال: ضع في عينيك قطرات من الخمر فتصبحان بعد حين حمراوين كالجمر.. ثمّ ادعي أمام رئيس البلدية أنك تكاد تفقد البصر وأن ما جرى لك من صنيعة القدر.

وخرجت من عند صديقي خائباً، لأنني لا أستطيع تنفيذ نصيحته، فأنا والشكر لله ما قربت المنكر في حياتي، ولن أقربه

أبداً، فكيف يريدني الآن أن أذهب إلى الدكان وأقول لصاحبه بالفم الملآن: أعطني يا عم قنينة خمر؟!

في طريق عودتي إلى البيت، مررت بسوق للألبسة النسائية، فإذا بي وأنا أتمشى في السوق، أقف أمام مانيكان صبية تشبه سعاد، وبدت لي مثل أميرة أخذت من سعاد كل ما تملكه من حسن الطلعة والرقة والجمال. دخلت إلى المحل وقلت لصاحبه:مرحباً يا عم.

قال:أهلاً.

فسألته:من أين جئت بهذا المانيكان؟

قال:اشتريته.

قلت:إنه يا سبحان الله نسخة عن حبيبتي سعاد.. فهل تبيعني إياه؟

تصفحني البائع من رأسي حتى قدمي، ثمّ قال لي:رح يا بني الله يفتحها عليك.

في البيت انطويت على نفسي حزيناً كئيباً، لأن البائع الذي يشبه رئيس البلدية، بجلافته وصلافته، لم يبعني المانيكان الذي يشبه سعاد. وتساءلت في نفسي:ماذا لو باعني هذا الحقير المانيكان؟ وقبل أن أستلقي على سريري، كنت قد وضعت مخططاً مفترضاً لما يمكن أن تؤول إليه الأمور لو باعني مانيكان سعاد المأمول: كنت سأُلبسها ثوباً كالذي تلبسه العروس ليلة زفافها، وأُجلسها على أحد المقعدين اللذين بجانب السرير، وأجلس أنا إلى جانبها على المقعد الثاني.

وكنت سأدعو كاظم الساهر وأصالة نصري وشيرين عبد الوهاب ولطيفة التونسية ليغنوا في ليلة عمري هذه حتى الفجر.

وكنت سأختمها بعراضة شعبية تزفني إلى سعاد وسط حشود المدعوين حتى يصلوا بي إلى السرير.

وكنت سأطلب من سعاد المانيكان أن تستلقي إلى جانبي بعد أن تخلع عنها ثوب زفافها الأبيض الحرير.

وكنت سأمتطيها وأنا أقول لها: اسمعي يا بنت الحلال.. يقول المثل، من يخجل من ابنة عمه لا يأتيه أولاد.. وأنا رجل أريد أولاداً يحملون اسمي.

وكنت سأجلب لها في صباحها الأول، تلالاً من العسل والزبدة والمربى والبيض والجبنة، وأقول لها: صباحك مبارك يا حلو.

وكانت سعاد ستقول لي، والله أعلم: صباحك مبارك يا حبيبي.

وكنت سأقول لها: أنت روحي وحبة عيني.

وكانت ستقول لي وهي تضمني إلى صدرها: أنتَ الهواء الذي أتنفسه والثوب الذي ألبسه.

رئيس البلدية في هيئة النزاهة الوطنية
المسماة " من أين لك هذا"

ورأيت فيما يرى النائم أنني غاضب من رئيس البلدية، وأنه أرسل إليّ وفداً قدم لي منحة قدرها عشرة آلاف ليرة سورية.. وأن الوفد قال لي، إنّ الاستغناء عني من المحال، وأن رئيس البلدية مستاء، وأنه كاد بسبب عدم وجودي على رأس عملي، أن يطبق الأرض بالسماء. فوعدتهم خيراً وقلت لهم: إنني مستعد أن أعود إلى عملي ولكن لي بعض الشروط . فقال الوفد: أنت تأمر يا أخ سعيد وجميع شروطك مستجابة. فشكرتهم على موقفهم وقلت لهم بلغوا سلامي لصديقي الأستاذ حميد. ثمّ غادر الوفد بيتي، فيما كانت المنحة تركن في جيبي. فسبّحت باسم الله وحمدته، وعلى العشرة آلاف ليرة شكرته.

ورأيت أن مدير هيئة النزاهة الوطنية المسماة (من أين لك هذا) سألني: من أين لك هذه العشرة آلاف ليرة يا متهم سعيد؟

قلت: هذه منحة وطنية من البلدية على ما قدمته لها من خدمات إضافية.

قال:أنت تكذب يا متهم سعيد.. لقد استوضحنا من رئيس

البلديـة ونفـى علمـه بذلك. قلت: أقسـم لك يا سـيدي أنها منحة، وأنا طوال عمري لم أمد يدي إلى المال الحرام، ثمّ من سيعطيني هـذا المبلـغ الكبيـر وأنـا لا أرى فـي نهاري وليلي سـوى الكلاب وزملائي في البلدية؟!

قال: طيب..من سلمك المنحة هذه كما تدعي؟

قلت:وفد من البلدية.

قال:ما أسماؤهم؟

قلت: لا أعرف.

قال:كيف لا تعرفهم وهم من زملائك موظفي البلدية!

قلت:كانـوا يضعون على وجوههم ماسـكات تنكرية بمناسـبة رأس السنة الميلادية.

فهاج المدير وماج، ثمّ أرعد وأزبد وهو يصيح بي: أنت تسخر مني؟! أقسم بشرفي الوطني أنني سوف أربيّ بك كل لصوص البلد يا حقير.. لقد نهبتم أنت وأمثالك قوت الشعب، وبنيتم به العمارات والفيلات، واشـتريتم أفخر أنواع السـيارات.. تصطافون في باريس وتشتّون في جزر المالديف، وأولادكم، ما شاء الله، لا يأكلون إلا السجق والسوبريم والناغيت.

وحين حاولت الدفاع عن نفسي، ضربني بقبضته على صدري وهو يقول: اصمت.. ولكَ لسان يتكلم يا حرامي يا فاسد!

ثـمّ نـادى علـى الحارس الـذي كان يقف خلف الباب، وأمره بأخذي إلى الحجز إلى حين محاكمتي.

وددت لو استطعت أن أقول له، إنني لست مرتشياً ولا سارقاً،

وإنني لا أملك شركات ومؤسسات، ولم يسبق لي أن اشتريت في دبي شققاً وفيلات.

وددت لو استطعت أن أقول له، يا سيدي يا مدير النزاهة الوطنية .. حقق مع رئيس البلدية الذي يملك عشرات البيوت والمحلات من وراء بناء المخالفات.

وددت أن أقول له، حقق مع ابن عم سعاد الضابط، الذي وعدها، إن هي تزوجته، بسيارة.. وأنه سيسجل باسمها عمارة.

في طريقي إلى الحجز، دفعني الحارس بقدمه، وهو يصيح بي قائلاً: هيا امش بسرعة يا فاسد.

فقلت له وأنا أُهرول قدّامه: حاضر يا سيدي الحارس.

وفي الحجز جلست أتفكر في أمري، وكيف يمكنني التخلص من حجزي...

قلت لأبي: يا أبي أنت تعرف أنني مظلوم، فما الذي يمكنك فعله من أجلي؟

فقال لي: حلّ عني يا ولد، فأنا مشغول هذه الأيام باستكمال مدة حبسي في سجن عدرا، وعليك بأمك التي في السعودية، فهي وحدها القادرة على حل هذه القضية.

قلت لأمي: يا أمي أنا مظلوم.. ساعديني أرجوك.

فقالت لي: خاف الله يا بني، فأنا مشغولة حتى رأسي هذه الأيام بقيام الليل والنهار، وعمك أبو زهدي لا يحتمل بُعدي.

قلت لسعاد: باسم الحب الذي يجمعنا يا حبيبتي خلصيني من

هذه الورطة فإن بقيت هنا لن أتزوجك في حياتي.

فقالـت لـي: أعذرنـي يا حبيبي لأنني لا أسـتطيع مسـاعدتك، فأهلي كما تعلم، أغلقوا عليّ الباب ويمنعونني من رؤيتك.

وقلت لصديقي الذي أسـتعير منه الكتب: أنت مطلع ومثقف ويمكنك إقناعهم ببراءتي وحسن سلوكي وثقافتي.

فقـال لـي: اعذرنـي يـا صديقـي، فأنـا مشـغول حتـى رأسـي بقـراءة كتـاب "طبائع الاسـتبداد ومصارع الاسـتعباد" لعبد الرحمن الكواكبي.. ثمّ أنني كما تعلم غير مرضيّ عليّ وشبه مراقب، وليس لي في هذه السلطة مكان أو صاحب.

وقلت للكواكبي: أنا مظلوم يا أستاذ ويُستبد بي.

فقال لي: اسـمع يا بني.. الاسـتبداد لغةً هو غرور المرء برأيه والأنفة عن قبول النصيحة، أو الاسـتقلال في الرأي وفي الحقوق المشـتركة. والمسـتبد يتحكم في شؤون الناس، بإرادته لا بإرادتهم ويحكم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المتعدي، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس، يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته...

فقاطعته قائلاً: يا أستاذي أرجوك أن...

فاحتـد لمقاطعتـي لـه، ثمّ كظم غيظه مني وتابع يقول: اسـمع يا بني ولا تقاطعني.

قلت: حاضر يا أستاذ.

قال: أين وصلتُ في كلامي وتبياني؟

قلت: عند النطق بالحق والتداعي لمطالبته...

وأكمل يقول: والمستبد عدو الحق، عدو الحرية وقاتلها، والحق أبو الشر، والحرية أمهم، والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئاً.. والمستبد يا بني يود أن تكون رعيته كالغنم دراً وطاعة، وكالكلاب تذللاً وتملقاً... ومن أقبح أنواع الاستبداد، استبداد الجهل على العلم، واستبداد النفس على العقل...

فقاطعته محتداً وقد نفد صبري: أشكرك يا أستاذ على ما أفدتني به من أفكار ومعلومات.. ولكن ماذا عن قضيتي؟

قال: اسمع يا بني.. عليك أن تكون كالخيل إن خدمت خدمت، وإن ضُربت شرست، وعليك أن تكون كالصقور لا تُلاعب ولا يُستأثر عليها بالصيد كله، خلافاً للكلاب التي لا فرق عندها أُطعمت أو حُرمت حتى من العظام...

وقاطعته مرة أخرى قائلاً: أرجوك يا أستاذ أن تجد لي مخرجاً لقضيتي وفك قيد حبسي.

فقال لي: أعذرني يا بني، فأنا كما تعلم، لست من أهل هذا الزمان، وأنا بصراحة ممن يقال عنه كان يا ما كان في قديم الزمان واحد اسمه عبد الرحمن..

قلت: أفهم أنك لا تستطيع مساعدتي؟!

قال: نعم يا بني.

قلت:أشكرك على ما تقدم وتأخر من كلامك.

قال: لا شكر على واجب، ولكن أنصحك، حين تخرج من الحبس، بالعودة إلى كتابي طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، والإفادة منه.

قلت: عيش يا كديش.

فردّ عليّ غاضباً، وهو يضرب بقبضته صدري، ثمّ يركل بقدمه خلفيتي: تأدب يا حيوان واعرف بحضرة من تتكلم.

قلت، وأنا أبتعد عن ضرباته، وأتحاشى ما استطعتُ ركلاته: حاضر يا سيدي وأستاذي عبد الرحمن.

وانزويت في الزاوية أبكي بينما كان الدم ينفر من فمي وأنفي، فدخل الحارس إلى الغرفة وسألني في دهشة: لماذا تبكي؟ وما هذا الدم الذي ينزف من فمك وأنفك!

قلت: لقد ضربني وأهانني.

قال: من؟

قلت: واحد يُدعى عبد الرحمن الكواكبي.

فأجاب بعد قليل من التفكر: لقد مرّ عليّ هذا الاسم وأعتقد أنه مطلوب للتحقيق معه في قضية تمس أمن الدولة.

ومن دون أن ينتظر تعليقي، صاح على عدد من زملائه، وطلب منهم مساعدته في نقلي إلى المستشفى.

في الطريق إلى المستشفى، وبينما كانت السيارة تلتهم الإسفلت المسود التهاماً، قال لي الحارس: يبدو أن النزيف توقف ولم تعد بحاجة إلى طبيب.

ثمّ تابع يقول: من الأفضل أن تذهب إلى بيتك وتأكل سودة وطحال لتعويض الدم الذي نزفته.

قلت له: وماذا ستقول للمحقق إن هو سألك عني؟!

قال: انس الموضوع.. ولكن إذا سـألك أحد هل أنت سـعيد قل له لا أنا حميد.

فاستوضحته مستغرباً: تقصد حميد رئيس البلدية؟

قال: نعم.. ومن هذه السـاعة اعتبر نفسـك رئيساً لبلدية عيشة مكانه.

فـي صبـاح اليـوم التالـي ذهبت إلـى البلدية، فـإذا بالموظفين ينتظرونـني علـى البـاب مرحبيـن ومهلليـن بصـوت واحـد: أهـلاً بالأسـتاذ حميد الذي كان اسـمه سـعيد. فشـكرتهم على استقبالهم الحار لي، ثمّ رحت بمشقة أشق طريقي بينهم، متجهاً نحو مكتب رئاسة البلدية الذي أصبح منذ تلك اللحظة مكتبي.

ومـن غرابـة مـا رأيـت لزمـت الصمـت، بينما بادرنـي حميد قائـلاً وهـو يحنـي ظهره احتراماً لي ويفتح بـاب المكتب: خدّامك وسكرتيرك سعيد.

فقلت له دون أن أنظر إلى وجهه: أهلاً حميد.

فردّ عليّ مستغرباً: عفواً يا أستاذ..أنا سعيد وحضرتك حميد!

وجلست خلف المكتب مزهواً بنفسي، وأنا أتطلع إلى أجهزة الهواتف المصطفة حولي، ثمّ قلت لسعيد الذي كان اسمه بالأمس حميد: ما اسـم الموظف المسـؤول عن قتل الكلاب الشـاردة في البلدية يا بني؟

قال: اسمه فريد يا أستاذ.

ولشدة ردة فعلي وغضبي، تناولت المنفضة التي كانت أمامي

على الطاولة، وضربته بها وأنا أصيح به: نادني بسيدي الأستاذ يا حيوان.

فإذا بسعيد الذي كان اسمه بالأمس حميد، يقول لي وهو يمسح الدم النافر من أنفه: أمرك يا سيدي الأستاذ.

وتابعت أقول له وأنا لا أزال في فورة غضبي وتأثري: هيا بسرعة آتني بهذا الذي اسمه فريد.

وعاد إلى المكتب مسرعاً كما خرج ومعه المدعو فريد، الذي كان يحمل على كتفه بارودته، وعلى خصره ضروبه.. فقلت له:أنت فريد؟

فردّ عليّ قائلاً، وهو ينظر بطرف عينيه إلى سعيد الذي كان اسمه حميد: نعم أنا فريد يا سيدي الأستاذ.

قلت: اسمع يا فريد.. أريدها اليوم مجزرة للكلاب الشاردة، وإن لم تكن كذلك وعلى خاطري، أقسم بأنني سأضربك بهذه البارودة ضرباً في رأسك يجلب آخرتك.. هل فهمت؟

فأجابني وهو يرتجف خوفاً: حاضر يا سيدي الأستاذ.

ثمّ شرعت في تصفح أوراقي، ومراقبة أجهزة هواتفي، والتطلع عبر النافذة إلى حدود بلديتي.. فإذا بي أرى: أبنية شامخة بلا تراخيص،وسكانها مفلسون تائهون بين حيص وبيص. فقلت لنفسي: هذا الكلب الحقير سعيد الذي كان اسمه حميد، لم يترك لي شيئاً ألحسه بإصبعي. فقررت في الحال تقديمه مخفوراً إلى هيئة النزاهة الوطنية المسماة (من أين لك هذا).

إنه مغامر ...
وعلى لقمة الناس وأمن الوطن متآمر

ورأيت فيما يرى النائم، أنني عدت "سعيداً" بعد أن سُميت "حميداً"، وأن الوقت قد حان لأعيش في أمان، وأن ابن عم سعاد الضابط لم يعد يُشكل بيني وبينها حائطاً. فقررت من لحظتي الاتصال بأبي، لكنني خفت أن يصفني بالزفت، وقد يقول لي: لا تفعلها يا وحش كما فعلها أبوك الجحش.

وخطر لي أن أسأل أمي فهي تعرف مشاعري وشؤون قلبي، لكنني تلكأت بعد أن تيقنت بأن أمي المسكينة لا تقدر على مساعدتي ونصحي، طالما تعيش مع هذا الرجل القاسي الذي يُدعى أبا زهدي.

ورأيت أن حبي لسعاد ليس له حدود، لكن باب منزل أهلها مغلق في وجهي ومسدود، فوجدتني أردد بحزن أغنية العندليب الأسمر قارئة الفنجان:

جلست والخوف بعينيها تتأمل فنجاني المقلوب
قالت يا ولدي لا تحزن فالحب عليك هو المكتوب
يا ولدي قد مات شهيداً من مات فداءً للمحبوب

وشعرت بفداحة غياب سعاد عني، وأنا أردد ما رددتُ، وبدأت أستشعر بألم يعصر فؤادي ويكاد يدمي قلبي. هل استشهدت سعاد فعلاً فداء حبها لي كما يقول عبد الحليم، بعد كل ما لاقته من أهلها وابن عمها؟ وإن لم تستشهد، فإن الفراق، بالنسبة إلي وإليها، أخو الموت.. وها هي مفارقتي منذ زمن.

استيقظت على رنين جوّالي، وقبل أن أرد، حدّقت في الساعة الجدارية، فإذا بها تشير إلى الحادية عشرة صباحاً. كان على الطرف الآخر عامل المقسم في البلدية وكان يستعجلني على موعدي مع الأستاذ.

عندما دخلت إليه كان مشغولاً في الحديث على الهاتف، وما إن رآني حتى سمعته يقول لمحدثه: ها قد وصل الأفندي. ثمّ تابع يقول: كن مطمئناً.. أظن أن الأمور ستكون على خير. وأغلق الهاتف بعد أن أعقب بصوت خفيض كلمات لم أستطع فهمها.

قال لي الأستاذ، وكأنه يُلقي خطبة أمام جمع غفير من الناس، ولكن بصوت خفيض:اسمع يا أخ سعيد.. أنا ومنذ رئاستي للبلدية لم أشك للحظة واحدة بوطنيتك وبولائك لي، وكنت دائماً أقول إن "سعيداً" مثقف يقرأ الكتب وهو حريص على مصلحة الوطن، ولهذا فإن أمراً جللاً ينتظرك وسيجعلك تدخل التاريخ من أوسع أبوابه.

قاطعته قائلاً وعرق الخجل يسيل مني: أنا في خدمة الوطن وخدمتك يا أستاذ.

قال: بلغني أن الكلاب تسرح وتمرح في البلدة من دون رقيب أو حسـيب، وأن أعدادها تضاعفت عشـرات المرات، وقد جاءتنا أوامر من فوق للقضاء عليها بسرعة وقبل فوات الأوان.

قلت وقد اشتدّ عزمي وتقطّب جبيني: أنا جاهز لتنفيذ كل ما يُطلب من فوق يا أستاذ.

قال: هذا هو عهدي بك يا أخ سعيد.

ثم استدرك قائلاً: هل سمعت بشخص يدعى سليمان الحلبي؟

قلت: نعم يا أستاذ..لقد سمعت شيئاً من سيرته.

قال: سليمان الحلبي هذا كما سمعت أنت.. قتل من؟

قلت: القائد الفرنسي الذي يسمونه كليبر على ما أظن.

قال: تقصد قائد قوات الاسـتعمار الفرنسـي في مصر والذي يدعى كليبر؟

قلت: بلى يا أستاذ.

وتابع يقول في حماس كما بدأ حديثه: وكليبر هذا يا أخ سعيد أعتى وأمرّ من الكلاب الشاردة، ولهذا استأصله بطلنا السوري خالد الذكر سليمان الحلبي.

قلت:ما عدت أفهم ما تقوله يا أستاذ؟!

قال: الكلاب نوعان يا أخ سـعيد، النوع الأول ينبح ويمشـي على أربع وليس مكلوباً دائماً، وهو كما تعرف أنت بالذات، سهل المنال والتخلص منه أمر بسيط، أما الثاني والعياذ بالله فإن عضته قاتلة ويمشي على قدمين، وهو على ما يبدو مكلوب بالولادة.

وقلت مندهشاً: هذه أول مرة أسمع بها يا أستاذ.

قـال: أنـت تعرفهـا، ولكنك لم تشـأ أن توّصفهـا... مثلاً ماذا ترى في الضابط ابن عم حبيبتك سعاد.. أليس كلباً مسعوراً يمشي على قدمين؟

فقاطعته مسـتغرباً: عفواً يا أسـتاذ، من أعلمك بخبري وقصة حبي؟!

قال: نحن.. أقصد أنا، أعرف عنك كل شيء، من طقطق إلى السلام عليكم.

فأجبته: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

ثـمّ وجدتـه ينهـض من خلف طاولته ويقترب سني. وضع يده على كتفي، وتمشّى بي إلى النافذة، وهو يقول لي بصوت خفيض: أنظر يا أخ سعيد إلى هؤلاء الناس الذين تراهم.

قلت:إني أنظر يا أستاذ.

قال: بين هؤلاء من يريد أذية الوطن وأذيتي، وقد تمّ ترشيحك مـن الذيـن فـوق، بأن تقـوم أنت بالتخلص منهم قبل أن يسـتفحل أمرهم.

قلت:روحي فداءك وفداء الوطن يا أستاذ.

ربـت علـى كتفـي وهو يشـدّ من عزيمتي ويقـول: كنت دائماً أرى فيـك البطـل المغـوار سـليمان الحلبـي، ومنـذ اللحظـة جهـز نفسـك لدخول التاريخ باسـم سـعيد الشـامي، بعد أن تنظف البلد من الكليبيرات المتآمرة على قوت الشعب وأمن البلد.

قلت: أنا جاهز يا أستاذ.

قـال: إذن اذهب إلى المسـتودع وأحضـر بارودتك وضروبك

وعد إلـيّ لتسـليمك خطة العمـل.. ولكن إياك ثـمّ إياك أن يعرف أحد ما دار بيننا من حديث.

قلت:حاضر يا أستاذ..فهمت يا أستاذ.

وتابـع رئيـس البلدية يقول وهو يدسُّ فمه في أذني:لدينا الآن قائمة بخمسـة كلاب تحت الطلب، ويجب تنفيذ المطلوب بقتلها قبل آخر الشهر، ونحن الآن كما تعلم في منتصفه.

قلت:أستطيع الإطلاع على القائمة يا أستاذ؟

قال: طبعاً..

ثمّ تابع يهمس لي وهو يتلفت حوله:أولهم رئيس مكتبنا الفني.

قلت:وماذا فعل؟

قال، وقد بدت على وجهه علامات التذمر: هذا سر من أسرار الدولة، ومع ذلك سأجيبك..

فقاطعته وجلاً خائفاً:أشـكرك يا أسـتاذ، وإذا كان في الأمر ما يمنع فلا داع لأن أعرف.

قـال: إنـه واحد منهم.. مغامر وعلى لقمة الناس وأمن الوطن متآمر.

قلت: قبح الله وجهه يا أسـتاذ.. دعه لي ولأجعله عبرة لكل متآمر وخائن.

فشـدّ علـى كتفـي وقـال: بارك اللـه فيك يا أخ سـعيد وأبقاك ذخراً للوطن .

ورأيـت أنهـم ضبطونـي بعـد أن قتلت رئيـس المكتب الفني،

وأنهم أودعوني سجن عدرا لحين محاكمتي، وأن أبي قال لي حين رآني: ماذا فعلت هذه المرة يا ابن القحبة التي تعتمر في السعودية؟

ورأيت سعاد تأتيني مبتهجة وتقول:رفعت رأسي بين زميلاتي في الدائرة.

فقلت لها ملهوفاً:أي دائرة تقصدين؟..فأنا على قول الأسمر حليم، بحثت عنك في كل مكان.

وما إن أنهيت كلامي حتى وجدتها تختفي من قدّامي.

وسمعت أمي تصيح من بعيد: ماذا فعلت يا سعيد؟

فأقول لها وأنا أتيبس من العطش:أرجوك يا أمي أريد قارورة ماء من زمزم.

فترد عليّ : اشرب من ماء عين الفيجة، وإن لم تتحصل على شيء منها فأنصحك بماء بقين.

ورأيت الجماهير تلتف حولي من كل حدب، وتأتيني من كل صوب، وهي تهتف لي: عاش سعيد الشامي قاتل كليبر البلدية. ثمّ تنشد بصوت واحد:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدر

ولا بدّ لليل أن ينجلي ولا بدّ للقيد أن ينكسر

فوجدتها فرصة مناسبة أن أصعد على قمة جبل قاسيون، علني أرى من فوق المحبوبة سعاد فأدعوها إلى كسر قيدها، حتى لا تبقى أسيرة ابن عمها الضابط، الذي يحاول أن يغريها بسيارة ويشتريها بعمارة...

فرأيت من فوق أمي وهي تتمشى بين الصفا والمروة تلوّح

للناس بيدها وتقول لهم: انظروا.. هذا هو ابني سعيد البطل.

ورأيت أبي يخطب في المساجين وهو مستلق على الأرض: ابن الحمار لا بدّ أن يكون جحشاً يا جماعة، وهذا الجحش الذي ترونه هو ابني.

ورأيت الضابط ابن عم سعاد يقول لي: وأخيراً وقعت بين يدي يا ابن الحرام.

ورئيس البلدية يهرب مني ويتبرأ من فعلتي.

ورأيت أطفالاً يتصايحون ويهللون، وشيوخاً يترحمون، ونساء يندبن ويبكين، وثلة من الشرطة تقودني إلى منصة الإعدام، حيث كانت الأنشوطة تنتظرني، فقلت مناجياً ربي: اللهم ارحمني أنا عبدك الجحش ابن الحمار المرمي في الحبس.

ورأيت، أنني أنا المدعو سعيد الموظف في بلدية عيشة قد مُت، وأن الناس جاؤوا إلى قبري ليترحموا عليّ ويقرؤوا ما تيسر من السور على روحي. قلت لهم: ظلوا عندي اليوم ولا تتركوني وحدي. فإذا بهم ينهروني، ولولا ضرب الميت حرام - كما قال أحدهم- لضربوني، بينما قال لي كبيرهم، وهو رجل ملتح وجليل: احترم نفسك يا ميت. فسكتُ عن الكلام المباح حتى شروق شمس الصباح، فحملت كفني بين ذراعيّ وذهبت إلى البلدية.

الزموا الحذر يا شباب
فإن ما حدث انقلاب

ورأيـت فيمـا يـرى النائم، أن الليل كان مدلّهماً وبهيماً، وأنني بـدوت حينهـا كالسـابح في نفق عظيم. وعرفت أنني السـاعة على الصراط وأنها ستكون ساعة هلع وضراط. وبينما كنت أفكر بحالي وأحوالي، جاءني الجرو ابن الجعاري، وقال لي: ها قد حان وقت الحساب يا قاتل الكلاب.

قلـت: حيـن قتلتـك كنـت موظفاً في البلديـة ولا يترتب عليّ حساب أو ديّة.

قال: هذا صحيح في دنيانا الفانية لا في آخرتنا الباقية.

قلت: وماذا تريد مني الآن؟

قال: سأشكوك للباري عزّ وجلّ إن لم تدفع لي ديّتي.

قلت: هذه مسألة بسيطة يا ابن الحلال ويمكن حلّها.

قال:إذن قدم لي عرضك ومدّ يدك إلى جيبك.

فدسست يدي في جيبي وناولته مئة ليرة، فإذا به يقول لي وقد انبسـطت أسـاريره وتهلل وجهه: الآن أصبحنا أصحاب وليس بيننا ما يدعو إلى الحساب والعتاب.

ثـمّ تركنـي وراح يجـري نحو الـدكان ليشـتري زجاجتين من شراب التفاح والرمان.

صباحـاً، وقبـل أن أصـل إلـى مبنـى البلدية، جنّ شـوقي إلى سـعاد، فذهبت حالاً إلى سـوق الألبسـة النسـائية، بعد أن أقنعت نفسـي بأن الرمد أفضل من العمى، وأنني إن لم أتوضأ بماء سـعاد فمن سيمنعني من أن أتيمم بترابها؟ وقفت أمام الواجهة الزجاجية ورحـت أناجيهـا والألم يعصـر قلبي، والدمع يهدر من عيني. قلت لها: لقد طال الانتظار.

قالت: ما بيدي حيلة.

قلت: ما عدت أحتمل فراقك.

قالت: وأنا أيضاً يا حبيبي.

قلت: ما العمل إذن؟

قالت: العمل عمل الله.

قلت: أفكر بخطفك بعد أن أقتل صاحب المحل.

قالت: أنت لست بقاتل، وإن فعلتها، أقسم إنني لن أذهب معك.

قلت: حسبنا الله ونعم الوكيل.

قالت: نعم.. حسبنا الله ونعم الوكيل.

وحين طال بي المقام وأنا أتحدث إلى سعاد المانيكان، خرج إليّ صاحب المحل وصاح بي قائلاً: وآخرتها معك يا أخ؟!

قلت وأنا أمسح الدمع عن خدي: نعم يا عم؟

قال: هذه آخر مرة أرى وجهك هنا.. هل فهمت؟

قلت: نعم فهمت يا عم ولكن قلبي لا يريد أن يفهم.

قال: إذن لا حول لك ولا قوة.

قلت: نعم يا عم.. لا حول لي ولا قوة.

قال: أمري إلى الله.. أدخل وأنا سأحل لك هذه المشكلة.

ودخلت معه إلى المحل، فإذا به يمدّ يده إلى عمق الواجهة من الداخل ويخرج منها سعاد المانيكان، ثمّ يقدمها إليّ وهو يقول: خذها وحلّ عني.

وحين عرضت عليه مبلغاً من المال، بعد أن حصلت على المآل، استغفر ربه ثلاثاً ثمّ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم أردف قائلاً وهو يربت على ظهري: اذهب في حال سبيلك يا بني.. الله يشفيك ويشفي أمة محمّد أجمعين.

فحملت من توّي سعاد المانيكان ورحت من بهجتي أركض بها من مكان إلى مكان، إلى أن استتبّ في بيتي المقام. أجلستها على الكرسي، ثمّ استأذنتها ساعة من الزمان لأنظف البيت وأرتبه كما كان، فقالت لي في عتب: هذا شغل نسوان يا حبيبي.

قلت لها: ما زلت عروساً يا حياتي، ولا يجوز أن أدعك تشتغلين في البيت من أول ليلة.

ولاحظت وأنا أرتب البيت وأنظفه، أن سزيري صغيرٌ وضيقٌ ولا يكفي لنوم شخصين، فنزلت للتو إلى السوق وابتعت سريراً جديداً، طويلاً وعريضاً.

ليلاً، استلقت سعاد على السرير الجديد وغطت في نوم عميق، فقلت لنفسي وأنا أنظر في حسنها واتساق ملامحها:

[illegible]اخل الواجهة أيام كانت مانيكان في سوق النسوان. وظللت أتملاّها وأُشبع عيني من رؤياها، إلى أن أصبح الصباح، فأغمضت عيني...ونمت.

ورأيت فيما رأيت أن أبي قال لي: لقد فعلتها إذن يا حمار وتزوجت؟!

و أن أمي سألتني: أين العلامة يا ولد؟

فأجبتها: عن أي علامة تسألين يا أمي؟

قالت: أنت مثل أبيك، حمار وستظل حماراً، ولن تفهم أبداً قصص النسوان.

ثمّ أردفت محتدة: عروسك عذراء أم ثيّب؟

وقال لي الضابط ابن عم سعاد وهو يفتل شاربيه: تكون هذه الشوارب على شرموطة إن لم أجعلك تدفع الثمن غالياً.

ورأيت أم سعاد تقول لزوجها: لقد وقع الفأس على الرأس وفعلها المجرم قاتل الكلاب.

وأن أباها ردّ على أمها قائلاً: هذه إرادة الله يا امرأة.

وما إن لاحت شمس الصباح حتى صارت العصافير تزقزق زقزقة، والبلابل تصدح صدحاً، والزهر يتفتح تفتحاً، والمطر يزخُ زخاً، والشمس تسترق النظرة من خلف الغيم سرقة، والناس في الشوارع والساحات يرقصون ويدبكون ويغنون ويباركون، وأنا أتوسطهم ببدلتي السوداء وربطة عنقي الحمراء، بينما كانت سعاد تطلّ على الجمع من النافذة بقميص نومها الأحمر الشفاف، وهي

تلوّح لهم من بهجة بمنديل أبيض ملطخ بالدم...

قال أبي: لقد فعلها الوحش.

وقالت أمي: الآن استقرت حالي وبردت ناري.

وقال ابن عمها: لا يمحو الدم غير الدم.

وقالـت أمهـا مبتهجة: قلبتم الطنجرة على فمها فطلعت البنت شريفة عفيفة مثل أمها.

وقـال أبوهـا مفتخـراً: إنما الأمم الأخلاق ما بقيت... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

تلك الليلة نمت وسـعاد مثل عروسـين، قبلتها وقبلتني، نمت فوقهـا وهـي نامـت تحتي.. وظللنا على هذا الحال حتى قالت لي: أنا تعبت.

فهجـتُ منهـا وغضبـت، ثمّ قلت لها: إياك ثمّ إياك أن تقوليها ثانيـة، حتـى لا أُصبـح أنـا مثـل أبي، وحتـى لا تصبحين أنت مثل أمي، فينتهي بنا المقام بين السعودية وسجن عدرا.

عندمـا وصلـت إلى باب البلدية، جاءني أحد الموظفين وقال في لهجة تهديد ووعيد: أين كنت في الثلاثة أيام الماضية؟.. البلدية قائمة قاعدة عليك والمعلم ما فتئ يطلبك.

ودون أن أردّ عليه، تابعت طريقي نحو مكتب رئيس البلدية، وأنا في حال من الخوف والارتباك.

قلت للحاجب الذي كان يقف أمام الباب: من بعد إذنك أريد الدخول إلى المعلم.

فتطلـع إلـيّ مرتابـاً وهـو يقول: هـذا أنت.. وجهـك أم ضوء القمر؟!

قلت: هذا وجهي.

قال: رئيس البلدية حلف بالثلاث أنه سـينتف ريشـك إن وقع بصره عليك.

ثمّ أردف وهو يفتح الباب: أدخل.. كان الله في عونك.

حيـن وقفـت قبالة رئيس البلدية ورأيت في تقاسـيم وجهه ما رأيـت، أدركـت أن اللـه لم يكن في عونـي لحظتها، وأنني على ما يبدو هالك لا محالة. بداية تمطى واشـتط، واحتد وامتد، ثمّ قال لـي وهـو يلتـف مـن خلف مكتبـه نحوي: والآن قل لـي أين كنت يا حيوان؟ وحين شـددت عزيمتي للرد عليه، اكتشـفت أنني بلعت لساني، وأنني الآن بتٌّ من دون لسان. قبض على خصلة من شعري وهزني ثلاثاً ثمّ قال: ردّ على سؤالي.. أليس لك لسان؟!

فشـرعت أومئ له بيدي أنني بلعت لسـاني، وبأنني يا أسـتاذ بتٌّ من دون لسان. ولأنه لم يفهم حركاتي وإشاراتي، فقد خبطني بقبضتـه خبطـة قويـة على ظهري، قُدر لها أن تُخرج بلْعي، فإذا بي أنطق وكأني ما بلعت ولا سبق لي أن خرست..

قلت: أعذرني على غيابي يا أستاذ.. فلم أغب عن البلدية إلا لشديد قوي.

فردّ ساخراً: وما هو هذا الشديد القوي؟

قلت: لقد أكملت نصف ديني.

فـإذا بـه يخـرج عن وقاره، ويهزٌّ من فرحتـه خصره ومنخاره،

وهو يصيح بأعلى صوته: تعالوا يا ناس يا جماعة التسيّب وعديمي المسؤولية واسمعوا ما يقوله هذا المنظوم زميلكم.

ولـم يكـد ينهـي كلامـه حتـى دخلت إلى المكتـب أفواج من الموظفيـن. وإذ يستتب بهـم المقام ويطول بهـم الانتظار، يخطب فيهم قائلاً: اسـمعوا يا موظفي بلدية عيشـة..أنا حميد بن فريد بن جـلا وطـلاّع الثنايـا ومتى أخلع عن وجهي الماسـك تعرفوني..أما واللـه فإنـي لأحمل الشـر بثقله وأحذوه بنعلـه وأجزيه بمثله، وإني لأرى رؤوسـاً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها.. يا موظفي بلدية عيشـة، إن أمين المحافظة نثل كنانة بين يديه، فعجم عيدانها عـوداً عـوداً، فوجدني أمرها عوداً وأشـدها مكسـاً، فوجهني إليكم ورماكـم بـي يا أهل النفاق ومسـاوئ الأخـلاق.. واعلموا أنه ليس منـي الإكثـار والإبـذار والإهذار، ولا مع ذلـك النفار والفرار، إنما هو انتضاء هذا السيف، ثم لا يغمد في الشتاء والصيف....

ومـا إن أنهـى رئيـس البلديـة خطبتـه حتى خلع الماسـك عن وجهه وامتشق سيفه، فإذا به الضابط ابن عم سعاد الذي وعدها بسيارة وأن يسجل باسمها عمارة. وحين رأى الموظفون ما رأيت، انفضوا إلى مكاتبهم هاربين، وسمعت أحدهم يقول لزملائه همساً: الزموا الحذر يا شباب فإن ما حدث انقلاب.

تحولـت البلديـة إلـى معسـكر وأصبح الضابط ابن عم سـعاد الحاكـم المطلـق فيه، فأمرهـم بإحضـاري مخفوراً، وكانت الحجة أنني غير وطني ومهمل للواجبات، فقرأ الحاجب القرار الصادر عنه فقال: يجلد المستخدم سعيد بن فلان بمئة جلدة أمام باب البلدية

وعلى مرأى من الموظفين والمراجعين. وتابع يقول والناس في حالة من الهلع: وسيشرف رئيس المكتب الفني على تنفيذ الحكم بمرافقة طبل الاستعراض في تمام الساعة الثامنة من صباح الغد بحضور طبيب أمانة المحافظة. التوقيع: حاكم بلدية عيشة.

ونمت ليلتي تلك وكأني ما أُهنت ولا عُذبت، حتى جاءني في المنام رجل ذو هيبة ومقام. قال لي: يا بني أنت هالك لا محالة فلا تطلب من ظلاّمك وقاتليك السلامة.

وقال لي: يا بني أنت رجل حر ومستقيم فلا تطلب الحياة من هذا الضابط المستبد اللئيم.

وقال لي: يا بني الداء حبُّ الحياة والدواء حبُّ الموت.. اصبر فالشجاعة صبر ساعة.

وقال لي: الداء في مد الرقاب للسلاسل والدواء في الشموخ عن الذل والرذائل.

وقال لي: اسمع بني فإني أنصحك قبل أن تموت أن تجد لروحك موضعاً حسناً.

فسألته سؤال اليقظ النائم: وكيف يكون لي ذلك يا سيدي؟

قال: ابحث عنها بين الأضداد يا بني.. كالصعود والهبوط والكبر والتواضع والكذب والصدق والمحبة والضلالة والعزة والمذلة.

صباحاً، جاءني رئيس المكتب الفني المكلف بجلدي وقال لي: جهز نفسك يا أخ سعيد.

قلت:على ماذا؟!

قال: هل نسيت؟

قلت وأنا أتحسس جسدي استعداداً لجلدي: وما الذي نسيته يا أستاذ؟!

قال: لقد بلغت اليوم سنّ الثلاثين وزملاؤك أحضروا الكاتو وسيحتفلون بعيد ميلادك.

فقلت له: أشكرهم شكراً جزيلاً.

ثمّ همست لنفسي: أنا لا أحب الكاتو أريد مشبّك وعوّامة.

وما أن خرجت إليهم، حتى وجدتهم جمهوراً غفيراً، طويلاً وعريضاً، فكان الطبّال يطبّل بطبله، والزمار يزمر بزمره، والناس في هرج عظيم، لا تعرف قاعدهم من واقفهم ولا قائلهم من ساكتهم. أقبل عليّ نفرٌ منهم يهنئونني بعيد ميلادي ويباركون لي أيام حظي وسعادتي، فشكرتهم شكراً جزيلاً وقلت لهم فيما قلت: لقد أخجلتموني باهتمامكم ولن أنسى ما حييت رعايتكم وعطفكم. فقال لي رئيس البلدية: ألف مبروك. وقال لي رئيس المكتب الفني: كل سنة وأنت سالم. وقال لي أمين مستودع الضروب مازحاً: سنة حلوة يا مضروب. وفيما كانت الفرحة تملؤني والسعادة الغامرة تغمرني أقبل عليّ الجعاري وجروه وقالا لي بصوت واحد: نحن سعداء ببلوغك سن الثلاثين ونتمنى لك طول العمر والهناء. قلت: ألستما غاضبان مني؟ قالا: لقد عفا الله عما مضى، لأن ما حدث يا أخ سعيد ذهب وانقضى. ففرحت من قولهما فرحاً عظيماً، ورحت أرقص مع الراقصين وآكل الكاتو مع الآكلين، إلى أن جاءني رئيس

البلدية وهمس في أذني: اعذرني يا أخ سعيد لأننا لم نجلب لك مشبّك وعوّامة. فاستغربت كيف عرف هذا البليد الذي اسمه حميد، بأنني لا أحب الكاتو؟

عندما استيقظت من النوم كان الحزن قد بلغ مني مبلغاً شديداً. لقد وصلت سن الثلاثين إذن وما زلت عازباً ووحيداً!! أمي في السعودية تتطلع إلى رضاء الله وزوجها، وأبي يقضي محبوسيته التي قد تطول، وأنا وحدي في البيت، لا أكلة هنية ولا شربة مرية ولا من يحزنون. وسعاد التي ملكت عقلي وقلبي اختفت عن ناظري، فلا علم لي عنها ولا خبر، وكأنها طيف جميل مرّ من أمامي ذات يوم ثمّ اختفى من دون كلمة عذر تخفف عني هذا الكدر. وحيداً ألملم نفسي عن الناس خشية أن يقولوا لي هازئين: من تظن نفسك يا قاتل الكلاب ويا ابن القحبة والحرامي. وحيداً أدفع عن نفسي ظلم رئيس البلدية الذي لا يراعي فيّ ذمةً أو قضية.

ورأيت أنني بعد أن خرجت من البيت تمشيت، وأنني عرجت على الجامع الأموي فتوضأت وصلّيت، ثمّ زرت قبر صلاح الدين الأيوبي فنظرت إليه واعتبرت، وقلت لحظتها فيما قلت: إن النصر صبر ساعة فلماذا يا سعيد ما هدأت وما اصطبرت؟ وصعدت إلى جبل قاسيون مشياً كما لم يفعلها مجنون، وصحت بأعلى صوتي: يا رب الأرض والسموات ورب الخلق والجماد كيف لي العثور على سعاد؟

فجاءني صوت قال لي: أنا سعاد وأرجوك يا حبيبي أن تخلصني من سجن العماد.

سألتها: أي عماد تقصدين؟

قالت: ابن عمي.

قلت: صار عماد؟

وقبـل أن أسـمع جوابهـا، نزلت من الجبـل هرولة إلى إحدى السـفارات، وطلبـت منهـا الهجـرة هربـاً من العماد ابن عم سـعاد، والفـوز برأسـي مـن عاديـات الزمـن، قبل تحويلي مثـل غيري إلى سجن الشيخ حسن.

وسمعت فيما سمعت من رجل عارف بأحوال الزمان اسمه ابن عرب شاه، المشهور بكتابه "عجائب المقدور في أخبار تيمور"، بأن المدعو سعيد الذي كان يعمل في بلدية عيشة، سيجمع بعد سنين، العسـاكر الجرارة والسـهام الطيّارة والسـيوف البتّارة، ويهجم على البلديـة هجمـة قويـة ويحررهـا من الحاقد الذي يسـمونه ضابط ، وسوف يكون معه ألف ألف مقاتل، ما بين فارس وراجل وضارب سيف ونابل. وأنه بعد أن يثبّت الضابط جأشه المزؤود ويستحضر عقلـه المفقـود سـيقول لسـعيد: لقـد أخطأت ومنـك المغفرة. وأن سعيداً هذا سيردّ عليه ردّ المنتصر الظافر: اذهب يا كرّ فأنت حرّ.

مات بالسكتة القلبية
وهو نائم فوق صبية

ورأيت فيما يرى النائم، أن "سعاد" عروس وأنني مجنون ومنحوس، فصرخت بأعلى صوتي: "لو دبّت نملة سوداء على صخرة صماء وما شعرت بها لقلت أنه ممسوس بي". لكن أحداً لم يسمعني، وأنا أيضاً لم أسمع صوتي، فعرفت أنني ما زلت نائماً، وأنه سبحانه وحده اليقظ الدائم.

خرجت إلى الشارع، فإذا بجمهرة من الناس تقف أمام المبنى الذي أسكنه، وما إن رأوني حتى أقبلوا نحوي حزينين كئيبين، فسألتهم: ما الذي حصل؟

فردّ عليّ كبيرهم قائلاً: البقية في حياتك يا بني.

قلت بعد أن كاد قلبي يسقط بين قدمي: ومن الذي مات لي يا عم.. أبي الذي في السجن أم أمي التي في السعودية؟

قال: لا هذا ولا تلك، وإنما هو العماد ابن عم حبيبتك سعاد.

قلت: ومن الذي جاءكم بخبره؟

قال: سمعنا من نشرة الأخبار.

قلت: وماذا سمعتم؟

قال: أنه أصيب بالسكتة القلبية وهو نائم فوق صبية.

وتابعت طريقي، فإذا بي أمام جمهرة أخرى من الناس، سألت أحدهم: ما الذي حصل؟

قال: اسأل غيري.

سألت غيره: ما الذي حصل يا حبيب؟

قال: أنا مجيب .. وهذا الذي إلى يمينك اسمه حبيب.

فسألت حبيب: ما الذي حصل يا أخ حبيب؟

قال: أنا لست حبيبك.

قلت: من أنت إذن؟

قال: أنا العماد ابن عم سعاد.

قلت: ولكني سمعت أنك مت؟!

قال: هذه دعاية أنا فبركتها حتى أعرف أعدائي من أصدقائي.

سألته: وماذا كانت النتيجة؟

قال: هذا ليس شغلك.

ثمّ اختفى من أمامي وكأني ما قابلته ولا حدثته.

وتابعت طريقي، فإذا بي أمام أناس من مختلف الألوان والأجناس، يهتفون بصوت واحد: يسقط العماد ظالم العباد.

سألتهم: أيّ عماد تُسقّطون؟

قال الأول: العماد حنفي بن حسنين.

قال الثاني: العماد سوسة بن موسى.

قال الثالث: العماد خليل بن شرحبيل.

قال الرابع: العماد سهيل بن جبيل.

فسألني أحدهم: وأنت يا أخ تُسقّط من؟

قلت: العماد ابن عم سعاد.

ثمّ هتفنا بصوت واحد: يسقط..يسقط..يسقط ..

وإذ بالعماد ابن عم سعاد، يقبل عليّ ويقبّل الأرض بين يديّ، وهو يقول: اعف عني ولا تسقطني أرجوك.

قلت له: اذهب لقد عفوت عنك.

وقبل أن يذهب سألني: هل تعرف أين سعاد؟

قلت له: لا أعرف.

قال: أنا ذاهب للبحث عنها، وإذا سألك أحد عني، قل له إنني على الجبهة أحارب الأعداء.

وتابعت طريقي، فإذا بي أرى على مرأى عيني عصابتين من الصبيان تتناوشان بالمسدسات، وحين سعيت لفك الاشتباك بينهما، جاءتني رصاصة عمياء أوقعتني أرضاً، فاجتمعت العصابتان فوقي، وراحتا تتناوبان على مدحي والحديث في شأني..

قال أحدهم مستغرباً: يا شباب نحن كنا نتناوش بمسدسات ترشّ الماء، فمن أين جاءت هذه الرصاصة التي قتلت هذا الرجل؟

وصاح آخر: في حارتنا غريب.

وقال ثالث: علينا القبض عليه قبل أن يهرب.

وقال رابع: لا بدّ أنه ابن العماد.

رفعت رأسي نحوهم وسألتهم: ومن تكون أمه يا شباب؟

فقاطعني أحدهم: ألم تمت بعد؟

قلت: ما زلت أتنفس بصعوبة ولكني على الأغلب مت.

فصاح برفاقه: احملوا معي جثة الشهيد لنضعها في براد المستشفى.

وحملوني على أكتافهم وراحوا يهرولون بي مسرعين نحو المستشفى، وهم يهتفون في حماسة منقطعة النظير: بالروح بالدم نفديك يا شهيد.. بالروح بالدم نفديك يا شهيد....

في المستشفى اجتمع حولي رهط من الأطباء والممرضين وشرعوا يمتدحون الشهادة والشهيد، حتى أن ممرضاً ملتحياً خطب فيهم قائلاً: يقول سبحانه وتعالى يا أخواني "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون" ثمّ طلب منهم وضعي في البراد لأن فيه كسباً للثواب، وحين لاحظ كبيرهم أنني ما زلت أتنفس، أمرهم بنقلي فوراً إلى غرفة العمليات.

كنت بين الحياة والموت وأنا مستلق على السرير في غرفة العمليات، وكان أطباء وطبيبات وممرضون وممرضات يتحادثون في قصتي وكيف السبيل إلى نزع الرصاصة من صدري.. لكن الذي أذهلني وكاد يفقدني عقلي، أن "سعاد" حبيبتي كانت تقف بينهم تندب وتبكي وهي تصيح: أرجوكم أنقذوا حياته.

فسألها أحد الأطباء: هل تعرفينه يا زميلة؟

فردت عليه وهي لا تزال تجهش باكية: إنه حبيبي ورفيق دربي.

فقال لها الطبيب وهو يميل نحوها مواسياً: سأعمل كل ما في وسعي لكي أنقذه يا دكتورة .

لكن سعاد لم تنتظر حتى يفعل الطبيب ما في وسعه أن يفعل، فاقتربت نحوي ووضعت كفها الأيمن على صدري، ثم راحت تُدلكه تدليكاً خفيفاً،ناعماً ولطيفاً، بينما كان الطاقم الطبي يراقب ما يحدث وهو في حالة من الدهشة والذهول، وما هي إلا بضع دقائق حتى كانت الرصاصة تنسل من صدري، فصاح من عجب من صاح، ووقع على الأرض مغشياً عليه من وقع، ثم مالت نحوي وراحت تنعشني فماً بفم...

قال كبير الأطباء: هذه معجزة ما رأتها عيناي من قبل.

وقالت طبيبة: ومن الحب ما أحيا وما ابتدع.

وقالت ممرضة: هذه أحلى عملية حضرتها في حياتي.

وقال ممرض: يا ليتني كنت مكانه.

وتابعت طريقي، فإذا بي أرى رجلاً وامرأة في الشارع محتدان، وبالأيدي والأرجل يتضاربان، وحين سألتهما عن سبب خلافهما قالت لي المرأة: هذا العنين يدعي أنني زوجته ويريد أخذي غصباً عني إلى بيت الطاعة.

وقال لي الرجل: هذه القحبة تدعي أنها زوجتي وتطلب مني نفقة.

وقالت لي المرأة: أنا أكرهه.

وقال لي الرجل: أنا أكرهها.

فسألت الرجل من يكون، فقال لي معاتباً: ألم تعرفني يا ولد.. أنا أبوك.

وسألت المرأة من تكون، فبكت بكاء مراً وهي تقول: نسيت أمك يا مغضوب.

فتنحيت جانباً وبكيت،ثم سألتهما أن يسامحاني، لكنهما أبيا ذلك واتهماني بالعقوق. وحين رأياني أجهش في البكاء، اقتربا نحوي وراحا يتحسسان بفيهما وجهي ويُمسدان بأيديهما شعري، وهما يغنيان معاً بصوت واحد رقيق وحنون: لا تبكي يا ولدي فالحزن عليك هو المكتوب.

ثم تركاني وحدي ومشى كل منهما في طريقه. عاد أبي إلى سجن عدرا، وعادت أمي إلى زوجها أبي زهدي الذي تعتمر وتحج معه كل سنة في السعودية.

وتابعت طريقي، فإذ بي أرى صبياً يحمل بيده مسدساً ويبكي، اقتربت منه وسألته: ما الذي يبكيك؟

قال: ضربني الأولاد الزعران.

وسألته: لماذا ضربك الأولاد الزعران؟

قال: لأنني قوّصت رجلاً بمسدسي وموّته.

قلت: أنا يا بني من بمسدسك موّته.

ثم سألته:أنت ابن من؟

قال: أنا ابن العماد ابن عم سعاد.

فقاطعته قائلاً وأنا مذهول: ومن أمك؟

فـردّ علـيّ فـي غضب وهو يلوّح بمسدسـه: ومـا دخلك أنت باسم أمي يا حقير؟!

فتركتـه فـي الحـال بعـد أن اعتذرت منه أيمـا اعتذار، ورحت أجـري وأنـا أقـول لنفسـي: هـل يمكن أن يكون هـذا الولد الأزعر هو ابن سعاد؟!

وتابعـت طريقـي، فـإذا بـي أرى سـعاد المانيكان تتمشـى في الشارع، اقتربت منها وسألتها: ماذا تفعلين هنا؟

قالت: لقد مللت من الجلوس في البيت فخرجت أتمشى.

قلـت غاضباً: وكيـف تخرجيـن مـن البيـت مـن دون إذنـي وموافقتي؟

قالت: سامحني يا حبيبي سعيد لقد أخطأت ومنك السماح.

ثم تنحت جانباً وأجهشت في البكاء. وبعد أن قبلتها وضممتها إلى صدري قلت لها: لقد سامحتك.

وبقينـا لحظـة على هذه الحال، تقبلني وأقبلها وأمسـح الدمع عن خديها، إلى أن جاءنا الرجل الملتحي نفسـه وقال في غضب: تمارسان الفسق في الشارع يا أولاد الحرام.

ثم ضرب سـعاد بكفه ضربة قوية على وركها وقال: تحصني يا امرأة فإن الله مع المحصنات.

ثم أردف متضرعاً ويداه مرفوعتان نحو السماء: اللهم أصلح عبـدك وأمَتـك وأهديهمـا إلى الطريـق القويم، وأحـم أعراضنا من الكفرة والفجار والفاسقين.

وتابعت طريقي فإذا بي أشعر أن أطرافي تتيبس وأن لساني ينشف، فعرفت أنني عطشان. وما إن نزلت إلى النهر وشربته من منبعه إلى مصبه حتى جاءني خلق كثير. تقدم نحوي كبيرهم وقال لي: ماذا فعلت يا أخينا.. لقد أيبست الزرع وجففت الضرع.

قلت له: أنا ما زلت عطشاناً يا عم فهل يوجد في هذه الناحية آبار ماء؟

فابتعد عني خائفاً مذعوراً وقال لجماعته: هيا بنا نرحل يا قوم فلم يعد لنا في هذا البلد لقمة نأكلها ولا شربة ماء نشربها.

فشعرت بحزن شديد وأنا أراهم يبكون وعلى حظهم السيئ يندبون. فعدت إلى مجرى النهر ودلقت ما في جوفي من ماء شربته.. فإذا بالنهر يتدفق، وبالزرع يخضر، وبالضرع يمتلأ ويتضخم، ففرحت فرحاً شديداً، ثم تابعت طريقي...

لكن كبيرهم لحقني وسألني: من تكون يا مولانا؟

قلت: أنا العبد الفقير لله سعيد.

قال: أنعم وأكرم يا مولانا.

ثم أردف يقول حين وجدني صامتاً شارداً: أنت يا مولانا موّتنا من العطش لأننا قوم فاسدون ثم أحييتنا لأنك وجدت في قلبنا بذرة ندم وتوبة، فما الذي يمكننا تقديمه لك غير بذور الزرع وشراب الضرع؟

قلت: أنا هائم على وجهي منذ سنين أبحث عن نصفي الآخر الذي اسمه سعاد..

فقاطعني قائلاً: طلبك مستجاب وهو موجود عندي يا مولانا.

ثم التفت نحو قومه وصاح: تعالي يا سعاد.

فإذا بعشر فتيات جميلات يأتين إليه صائغات طائعات وقلن له بصوت واحد فيه غنج وحنان: نعم يا سيدنا؟

فنظر إليّ وهو يضع بصره بين قدميه وقال: اختر واحدة منهن يا مولانا.

وحين نظرت وأبصرت وأطللت، وجدتهن كلهن حبيبتي سعاد، في حركاتها وسكناتها، في تغنجها وكلامها، في تسريحة شعرها وتطابق فمها وأنفها، وحتى في قوامها ومشيتها.. فتحيرت أيهن أختار. ولما طالت حيرتي قال لي: لا تهتم ولا تحتر يا مولانا.

قلت: ماذا تقصد يا شيخ؟

قال: كلهن لك حلال زلال فاحملهن على بركة الله وسر.

فشكرته شكراً جزيلاً، ثم حملتهن كما طلب مني، وتابعت طريقي مودعاً بالبركات والزغاريد.

أنا سلطان الحقيقة
ومقتدى الطريقة

ورأيت فيما يرى النائم، أنني خرجت من البيت إلى البرية،وأنني وفّقتُ بقتل خمسة كلاب جعارية، وأن رئيس البلدية استقبلني كما يُستقبل الأبطال في مثل هذه الأحوال، فعلّق على صدري النياشين كوني شجاعاً من شجعان الوطن الميامين. لكن ذلك التكريم لم يفرحني، بعد أن علمت من المحاسب، أنه ليس في نية البلدية أن تصرف لي مكافأة شهرية، فأصبت بالإحباط، لأن كلام رئيس البلدية كان مثل شهر شباط، ليس عليه قيد أو رباط .

وبقيت على هذا الحال عدة أيام، إلى أن جاءتني الكلاب الخمسة التي قتلتها، لمواساتي والتخفيف من حزني وتعاستي...

قال الأول:اصبر يا أخي فالصبر مفتاح الفرج.

قال الثاني: لا تحزن فهذه هي إرادة الله.

قال الثالث: مكافأتك ناجزة لكن رئيس البلدية سرقها وأنصحك أن تشكوه لأمانة المحافظة.

قال الرابع: أرجوك أن تقول لي كيف يمكنني مساعدتك ومدّ يد العون لك.

قال الخامس: خذ المائة ليرة هذه، فهي آخر ما ادخرته قبل أن أنفق.

ثمّ استأذنوني وعادوا إلى مقبرتهم هادئين مطمئنين، فشكرتهم شكراً جزيلاً، بعد أن تمنيت لهم طيب الإقامة في المقبرة التي قبرتهم فيها، فبادلوني الشكر بالشكر وطيب العيش بأطيبه.

وخطر لي أن أسمع نصيحة الكلب الثالث وأذهب إلى رئيس دائرة مكافحة الكلاب الشاردة في أمانة المحافظة وأقدم شكوى رسمية بحق رئيس البلدية، وأقول له إنني مظلوم وأن رئيس البلدية سرقني. وحين ذهبت إليه استقبلني بالترحاب وقال لي: أنت يا أخ سعيد مثال حيٌّ وناصعٌ للمواطن البطل الشريف وإنك ولله طيبٌ وشجاعٌ وعفيف.

قلت له: أنا مظلوم يا أستاذ.

قال:ومن ظلمك؟

قلت: رئيس البلدية..لقد قتلت خمسة كلاب ولم يصرف لي مكافأة.

قال: ولكني علمت أنه قلدك النياشين وعمل لك حفل تكريم.

قلت: هذا صحيح يا أستاذ ولكني أحتاج إلى المال.

قال:ولماذا أنت محتاج إلى المال؟

قلت: لكي أُكمل نصف ديني.

قال: أما زلت أعزب؟!

قلت: نعم يا أستاذ.

قال: طلبك عندي.

ثـمّ ضغـط علـى الزر الذي إلـى جانبه، فإذا بصبية جميلة مثل البـدر تدخـل إلـى المكتب وهي تقول: شـبيك لبيك سـعاد الحلوة بين يديك.

قال لها: اسـمعي يا سـعاد..قولي لزميلك في الأمانة، المدعو سـعيد، زوّجتكَ نفسـي على سـنة الله ورسوله، بمتقدم وقدره ليرة وبمتأخر وقدره ليرة.

وقـال لـي: وأنت يا سـعيد قل لزميلتك فـي الأمانة، المدعوة سـعاد، زوّجتك نفسـي على سـنة الله ورسـوله، بمتقدم وقدره ليرة وبمتأخر وقدره ليرة.

ثم تركنا وخرج من المكتب بعد أن قال لنا إنه بإمكاننا قضاء هذه الليلة في مكتبه الوثير، فشكرناه شكراً جزيلاً، وتمنينا له دوام المنصب والسعادة والعمر الطويل.

وحدث في ذلك النهار، أن أمين المحافظة شخصياً كان يقوم بجولة اسـتطلاعية على المكاتب وخلفه الأعوان والمرافقون، وما إن رآني وسعاد في حالة من السعادة والانبساط حتى صاح بأعلى صوتـه: تمارسـان الرذيلـة فـي مبنـى محافظتـي يا خنازيـر يا أولاد الخنازير. وأصدر من لحظته قراراً بمعاقبتي ومعاقبتها، فاعتبرت أن ما حدث لنا ليس فأل خير نبدأ حياتنا به، ولم يمض على زواجنا بعد سوى سويعات قليلة...

فقلت لها: أنت طالق يا سعاد.

وقالت لي: أنت طالق يا سعيد.

وقلت لها: لا تزعلي مني أرجوك.

وقالت لي: لا تزعل مني أرجوك.

وذهب كل منا في حال سبيله. أنا عدت إلى البلدية وهي عادت إلى مكتبها، وكأن الذي بيننا من غرام ما حدث وما كان.

في طريقي إلى البلدية مررت إلى المقهى لأشرب فيه فنجاناً من القهوة، فوجدت هناك شاباً ثاقب النظرة بهي الطلعة يجلس خلف واجهة المقهى الزجاجية، يحصي حركات البشر ويتلمس سكنات الحجر. وإذ تأخذني نظرته وبهاء طلعته، أجدني أقترب منه وأسأله: من أنت يا أخ؟

فردّ عليّ قائلاً بعد أن دعاني للجلوس إلى طاولته ومسامرته: أنا سلطان الحقيقة ومقتدى الطريقة، مظهر الدقائق وفائض الحقائق، معدن الحكمة وصاحب الهمة، المؤيد بالملكوت والمنخرط في سلك عالم الجبروت، بقية السلف سيد فضلاء الخلف، أفضل المتقدمين والمتأخرين، لب الفلاسفة والحكماء المتألهين، شهاب الملة والحق والدين، أبو الفتوح شهاب الدين السهروردي.

قلت وقد صعقني ما سمعت: أنت هو السهروردي؟!

قال: نعم أنا هو.

قلت: هل تعطني قبضة من حكمتك يا شيخي.

قال:لقد عاهدت نفسي ألا أبذلن العلم وأسراره إلا لأهله، وأن أتقي شر من أحسنت إليه من اللئام، فقد أصابتني منهم شدائد.

قلت:لم أفهم ما ترمي إليه يا شيخي رغم أني قرأت لك كتابيك التلويحات والمقاومات؟!

قال:لقد قلبوا علمي جهلاً، وهدايتي ضلالاً، ويقيني شكاً، وإيماني كفراً، وتصوفي شعوذة، وفلسفتي هرطقة، وحسناتي سيئات.

ثم راح يبكي بكاء مراً، فانهمر الدمع من عينيه وسال مدراراً على خديه، فقلت له: صبراً جميلاً يا شيخي وبالله المستعان.

قال:لقد شنّ عليّ هؤلاء الأوغاد حملة بعد حملة، ولم يتركوا نقيصة إلا وألصقوها بي، لكن الملك الظاهر أطال الله في عمره قرّبني إليه وجعلني من خلصائه وأنزلني منزلة عظيمة، غير أنهم لجأوا إلى أبيه الملك صلاح الدين يستفزون ورعه وتقواه، وحجتهم أنني سفسطائي ومن أصحاب البدع والمنكرات، فأمر بإبعادي ونفيي، إلى أن كتب سبحانه ربي ما كتب فتُلفتُ، وإذ تُلفتُ ما نُسيتَ وما تناسيت.

ثمّ نهض من مكانه فجأة وهو يقول لي: أنا ذاهب.

سألته: إلى أين؟

قال: إلى حلب.. مقرّي ومستقرّي.

قلت: هل تأخذني معك يا شيخي؟

قال: راحلتي لا تتحمل سوى راكب ومسكني ضيق لا يتسع إلا لشهيد.

قلت: أرجوك بلغ سلامي لأهلي وقل لهم أنني في شوق عظيم.

ثم رحت من لحظتي أسمعه ينشد بيتاً للحلاج وهو ينظر إلى البعيد:

لأنوار نور النور في الخلق أنوار وللسر في سر المسرين أسرار.

ولم يكد يخرج من باب المقهى حتى جاءني النادل يسألني: أين الشخص الذي كان يجلس معك؟

قلت: تقصد شيخنا السهروردي.

قال:لا يهمني إن كان سهروردياً أو ماوردياً.. المهم أن تدفع لي ثمن فنجان القهوة الذي شربه.

فقلت له: حاضر.

ونقدته المبلغ الذي طلبه وخرجت...

كنت أود أن أقول له إنني أعاني ما عانيت وأشكو مما اشتكيت.

وكنت أود أن أقول له إن الضابط ابن عم سعاد يكيد لي وقلبَ إيماني كفراً ويقيني شكاً.

وكنت أود طلب النصيحة منه بما يمكنني فعله مع رئيس البلدية الذي يهينني ولا يأخذ بحجتي ورأيي.

وكنت أود أن أحكي له عن أمي التي في السعودية وعن أبي الذي في السجن.

وكنت أود أن أضع رأسي على صدره وأبكي له كما بكى لي.

في البيت وجدت سعاد المانيكان تجهش، فسألتها: خيراً إنشاء الله.. لماذا تبكين يا حبيبتي؟

قالت: أنا جائعة.

قلت: كُلي من حواضر البيت.

قالت: مللت منها ولم أعد أستطيع أكلها.

قلت: وماذا تريدين إذن؟!

قالت: نفسي في اللحم.

قلت: أنا نباتي ولا أُدخل اللحم إلى بيتي.

قالت: إذن طلقني.

قلت: لن أفعل.

فإذا بوجهها يحتقن ويصفر وأنفها يرتجف ويحمر، ثم تنقض عليّ وتقضم إحدى يديّ، وما إن بلعتها حتى خرجت إلى الشارع وراحت تروي للناس قصتي وبأنني نباتي ولا أُدخل اللحم إلى بيتي، إلى أن جاءني أحد الجيران وقال لي: يا بني يا سعيد، أنصحك ألا تسلك مسلك أبيك، وأن تُحسن النظر بزوجتك حتى لا تجعلها تجري مجرى أمك، وذلك ابقى لك على السلامة وأدوم لسيرتك على الاستقامة.

كُلني بسرعة أرجوك
فأنا نعس وأريد أن أنام

ورأيت فيما يرى النائم أنني خرجت إلى الشارع في ليلة ليلاء، وأنني وجدت الكون حينئذ وكأنه قطعة سوداء، فصحت بأعلى صوتي: يا ناس يا هوه من يدلني على سعاد أُعطيه نصف عمري.

وظللت على هذا المنوال أكرر السؤال، إلى أن أطلّ عليّ أحد الجيران من نافذة بيته وقال لي: أخفض صوتك يا جار نريد أن ننام.

قلت له: ألم تسمع قول الشاعر.. ما أطال النوم عمراً وما قصّر في الأعمار طول السهر.

قال: أنت سكران والشرطة وحدها تعرف كيف تتصرف معك.

ولم تمض لحظات حتى جاءت دورية الشرطة، فكبّل أفرادها يديّ إلى الخلف وقادوني أمامهم إلى السيارة، وسط فرحة الشامتين وحزن المحبين.

في المخفر قال لي المساعد: هل أنت سكران يا مواطن؟

قلت: ما قربت الخمر في حياتي يا سيدي.

فاقترب مني وراح يشم فمي ويتحسس لحمي ويدور حولي، وإذ أشعر بالخوف منه، ألحظ أن مخالبه طالت وأنيابه نبتت...

قلت له مذعوراً: من أنت يا سيدي؟

قال: أنا الذئب.

قلت: ومن أنا؟

قال: أنت ليلى.

قلت: أنا ليلى وأنت الذئب؟!

قال: نعم.

قلت: إذن كُلني بسرعة أرجوك، فأنا نعس، وأريد أن أذهب إلى بيتي لأنام.

فهجم عليّ هجمة جائع نهم، وطفق ينهش لحمي ويجرش بأسنانه عظمي، إلى أن بلع آخر قطعة من جسدي. بقيت في بطنه لساعات، إلى أن جاء أبي وأخرجني بمديته من بطن الذئب الذي ادعى أنه مساعد في الشرطة، ثمّ عاد من لحظته إلى سجن عدرا لاستكمال محكوميته، بعد أن وبخني، وبالغ من قهره في شتمي وضربي.. وقال لي قبل أن يودعني: أنت مثل أمك لا ليلك ليل ولا نهارك نهار.

ومع ذلك فقد شكرته شكراً جزيلاً ومضيت.

في مكتبه، أشعرني حنان صوته وانفراج وجهه، وهو يستقبلني، أنه ليس الأستاذ حميد الذي أعرفه. حاولت أن أعتذر منه وأخرج، لكنه حلف أغلظ الأيمان أنه سيزعل مني، وطلب من لحظته فنجاني قهوة، واحد لي وواحد له. ثم قال لي ونحن نشرب القهوة: لقد قررت الأخذ بنصيحتك يا زميل سعيد.

سألته: أي نصيحة تقصد يا أستاذ؟

قال: أقصد موضوع مكافحة الكلاب.. سوف نستخدم الطعوم السامة بدلاً من البارودة والضروب، ولقد أصدرت قراراً بذلك، فهي كما تفضلت وقلت لي أكثر إنسانية.

قلت: بارك الله فيك يا أستاذ فقد أثلجت صدري، وأستطيع أن أقول لك الآن وبالفم الملآن، لقد علا نجمك وغاب نحسك ودام منصبك.

قال: أرجوك أن تبلغ سلامي الحار للسيد رئيس جمعية الرفق بالحيوان وأن تنقل له موقفي الجديد، وقل له إننا أصبحنا في خندق واحد بمواجهة القتلة عديمي الرحمة، وأنه بتعاوننا هذا لا بدّ لنا عاجلاً أم آجلاً من تقديمهم للمحاكمة.

فشكرته شكراً جزيلاً وخرجت.

في الممر تحلق حولي الموظفون والمستخدمون،يباركون لي بالقرار الجديد الذي اتخذه رئيس البلدية بتعييني رئيساً لقسم الطعوم السمية.. وقالوا لي: هذه خطوة أولى على سلم المراتب الوظيفية.

فشكرتهم شكراً جزيلاً ومشيت.

على باب البلدية استوقفني رجل وقال لي: حضرتك السيد سعيد؟

قلت: نعم أنا هو.

قال: أنا الضابط عماد ابن عم سعاد.

قلت: أهلاً وسهلاً.

قال: لقد بلغني من شـأنك ما بلغ ويشـرفني أن تكون زوجاً لابنة عمي سعاد.

قلت: بارك الله فيك ورفعك إلى أعلى المراتب.

قال: أريد مساعدتك في هذا الموضوع فقد أزف وقت ترقيتي.

فوعدته خيراً وتابعت طريقي.

مشيت بضع خطوات فإذا بجوالي يرن ...

قلت: آلو.

فجاءني صوت يقول: أنا فؤاد شقيق سعاد.

قلت: أهلاً وسهلاً.

قـال: أريـد أن أهديـك المجموعـات الكاملـة لكتـب لينيـن وماركس وديستوفسكي وتولوستوي.

قلت: شكراً.

قال: بالمناسـبة.. أمي وأبي يبلغانك سـلامهما الحار ويقولان لك تفضل لعندنا اليوم لتشرب فنجان قهوة من يد خطيبتك سعاد.

فشكرته شكراً جزيلاً، ثم أغلقت جوالي وسرت.

فـي البيـت، رأيـت أمي وأبي يخرجـان من الحمام وهما على أحسن حال، وكانا يتمازحان، ويتبادلان كلمات الحب والاحترام.

سألت أمي: خير إن شاء الله.

قالـت: لقـد كفّيـت ووفّيت،خمـس عمـرات وأربـع حجات، وعمك أبو زهدي أخذ الله أمانته منه ودفنته هناك في السعودية.

وسألت أبي: خير إن شاء الله.

قـال: لقـد أنهيـت مـدة محكوميتي، والحاجة أمـك بارك الله فيها، تقوم على خدمتي ولا تدخر جهداً من أجل إسعادي.

فشكرتهما على ما آل إليه حالهما وصمت.

ورأيت فيما رأيت، أنني خرجت من البيت إلى الشـارع، وأنا أصيح بملء صوتي: من كان منكم بلا سعاد فليرمني بحجر.

فاجتمـع حولـي خلق كثير وقالـوا لي: لا تثريب على كلامك فكلنا في الهم سعاد.

ثم خرج من بينهم شـيخ وقور وقال لي: عُد من حيث أتيت يا بني، قبل أن تُمحى رسـومك وتُطمس معالمك، فتصبح موحشـاً بعد أنس ومشوهاً بعد حسن ومكمناً للوحش ومخبأ للص.

فسألته: من تكون يا سيدي؟

قال: أنا عمك ابن حزم الأندلسي.

فشكرته شكراً جزيلاً وعدت.

في البيت، قبلت يد أبي الذي كان في السجن، ويد أمي التي كانت في السعودية، ثم أغمضت عينيّ.. ونمت.

ورأيـت فيمـا يـرى النائـم، أن العماد ابن عم سـعاد عاث في البلاد وطال ظلمه كل العباد، فخرجت إليه حشودٌ غفيرة من الناس

تهتف غاضبةً "الشعب يريد إسقاط العماد ابن عم سعاد" وأن العماد خرج إليها بعدده وعديده وقتل منها خلقاً كثيراً.

ورأيت فيما رأيت، أن الحشود تابعت سيرها في الحواري والساحات، وهي ترمح بأجسادها وتصدح بحناجرها "الشعب يريد إسقاط العماد ابن عم سعاد".

دمشق 2010/ 2011

الأعمال المطبوعة:

دخلت الرصاصة من النافذة، مسرحية -دار الوثبة- دمشق 1983.

أحداث ليلة، قصة -دار الجليل- دمشق 1984.

حمود مستدير القامة، رواية -دار المجد- دمشق 1985.

صخب الأرصفة، رواية -دار نينوى- دمشق 2003.

حديقة الرمل، رواية -دار الطليعة الجديدة- دمشق 2005،ط2 دار نـون4 دمشـق 2008، ط3 الهيئـة العامـة لقصور الثقافة- القاهرة 2011.

سموات الوحشة، رواية -منشورات الكوكب/ دار رياض الريس للكتب والنشر- بيروت 2009.

ليلة الإمبراطور

رأيت فيما يرى النائم، أنني أجلس القرفصاء على سجادة حمراء داخل قفص خشبي مزخرف. كان وجهي مصبوغاً بالأخضر والأحمر، وجسدي يضج بقرقعة الحليّ، وثوبي بالكاد يستر بعضاً من وركي وصدري، ويتحلق حولي رجال كثر، بشواربهم الكثة المعقوفة وذقونهم النابتة، وهم يرمقونني في شغف من قدمي حتى رأسي.. وكان أحدهم لا يتوقف عن مغازلتي ورمي الكلمات النابية في وجهي، وهو يحرّك بين الفينة والأخرى، وبطريقة استعراضية وقحة، موضع نظرات عينيه المنغرزتين في لحمي. وحينما كنت أرشقه بنظرة حادة من طرف عيني وهو يفعل ذلك، تداخلني الرغبة في البصق عليه، لكن القواد الذي كان يقف إلى جواري ويساومهم على استئجاري، لم يكن يدخر جهداً في مراقبة نأماتي وحركاتي وهو يدعوني، قبل فوات الأوان، إلى مزيد من التغنج والدلال، وإلا دفعت ثمن بلادتي وسوء فهمي وتصرفي. وفيما كانت تتناوشني نظرات العابرين ولمسات بعض العسس المندسين، كان القوّاد يدور حول القفص، يستدرج العابرين بصوتٍ ناعم سلس: اسمها سعاد.. هيفاء ميساء، وجهها أبيض مدوّر مثل البدر،وشعرها أسود مثل الحبر.. صدرها مكتنز يملأ كفين، ووركها فخيم لحيم يملأ حوضين.. خصرها ناعم مستدق، وبطنها بطن فرس حر غير مسترقّ ....

غازي حسين العلي

• كاتب من سورية

ISBN: 978-614-02-1072-1



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

دار الأمان
الرباط

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com